الفصل الثانى

عبـر الزمـان والمكان

عبر الزمان والمكان

١

تغيرت حياة العرب تغيراً شاملاً بظهور الإسلام ؛ إذ أنه لم يكن ثورة دينية انتقلت بالمجتمع العربى آنذاك من الكفر والوثنية إلى الإيمان والتوحيد فحسب ، بل إنه كان ثورة اجتماعية وفكرية وسياسية واقتصادية معاً . إن الإسلام فلسفة شاملة ، لها نظمها النابعة عن فكرة التوحيد التى تمثل حجر الأساس فى الفلسفة العامة له .

ومن شأن هذه الفلسفة أن تجمع الناس على فكرة واحدة ، وشريعة واحدة ، وحكومة واحدة ، تنهار أمامها تلك الوحدات السياسية الانفصالية ، وهاتيك العصبيات المتباينة . لقد استبدل الإسلام بعصبية الدم أخوّة الدين ، وأذاب الفوارق بين الطبقات ، وأقام نظامه الاقتصادى على أسس نظيفة ، خالية من الربا والجشع ، فكانت الزكاة وسيلة للتكافل الاجتماعى ، وكانت عبادة الله الواحد الأحد تحريراً لعبودية الإنسان لغير الله تعالى .

ولقد كان لهذه القيم ، والمثل الإسلامية دورها الفاعل فى زوال أغراض شعرية معينة ، لاتتفق وتعاليم الدين الجديد ، كشعر الخمر والفُحش والهجاء ، والتنابز بإثارة الحمية ، والتفاخر بالأحساب والأنساب . كما كان من شأنها أن تؤذن بخلق فنون جديدة ، لم يكن للجاهليين بها عهد .

وبنزول القرآن على النبى ﷺ ، دستوراً وهدى للناس ، فى صورة أدبية رائعَة ، تأكد الوجه الأدبى لثورة الإسلام : ففى القرآن الكريم فكره وقيمه وتعاليمه ، وأصوله ونظمه ، فى تعبير أخَّاذ ، وتصوير معجز ، تحدى العرب جميعاً ، وهم أهل فصاحة ولَسَنٍ وجدل وحِجاج ، فلم يستطيعوا أن يحاكوه ، أو يأتوا بسورة من مثله ؛ ولذا شغل العرب بالقرآن عن الشعر زمناً ، يحفظون آياته ، ويكتبونها ، ويتلقون تفسيرها ، ومعانيها ، وأحكامها .

وبعد الهجرة بدأ الصراع بين المسلمين فى المدينة وكفار قريش ، ودخل الشعر سلاحاً فى هذا الصراع . وهنا أمر النبىُّ ﷺ شعراء المدينة بالتصدى لشعراء الكفار ، ونهض بهذا العبء ثلاثة من كبار شعراء المسلمين هم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وهكذا واكبتْ معركةَ السلاح فى الغزوات معركة لسانية – قبلها وخلالها – بين الفريقين . فكان فريق الكفار يحمل حملات مسعورة على الإسلام ونبيه والمسلمين ، مستعملاً معانى وصوراً جاهلية فى حين كان الشعراء المسلمون يمزجون الصور الجاهلية بصور ومعان إسلامية .

وهكذا ظهرت مدرستان فنيتان ، تتجادلان حول الدين الجديد :

مدرسة مكة ، أو المدرسة الكلاسيكية القديمة ، ومدرسة المدينة أو المدرسة الكلاسيكية الجديدة . وتدافع فى القصيدة العربية – آنئذ – تياران يتنازعانها : تيار جاهلى موروث ، وتيار إسلامى مستحدث . ومن مزاوجة هذين التيارين ظهرت الصورة الجديدة للقصيدة العربية فى العصر الإسلامى[1] . وكان من بين شعراء النبى ﷺ من تمسك بالأصباغ الجديدة ، المستمدة من القرآن الكريم ، وأساليبه وألفاظه ، لايريم عنها ، كعبد الله بن رواحة . ومنهم من كان أكثر ميلا لاسترفاد التراث الجاهلى ، يقارع به المشركين ، كما فعل حسان بن ثابت ، الذى كان فنه قد نضج فى العصر الجاهلى ، واكتملت وسائله ومقوماته . فكان صعباً عليه أن يبدأ من جديد .

---

(١) **تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى** . الدكتور يوسف خليف

وهكذا ظل الطابع العام للقصيدة العربية فى هذا العصر مزيجاً من الموروث الجاهلى القديم ، والجديد الإسلامى المستحدث ، مع تفاوت بين الشعراء ، لم يكن منه بدٌّ ، حسب تكوينهم وظروفهم . وظل هذا حال القصيدة العربية خلال الفتوح الإسلامية ، يتراوح بين القديم والجديد ، على تفاوت يبدو بين شعرائها ، فمنهم من راح ينظم معانى القرآن وبألفاظها نفسها شعراً ، كما فعل النابغة الجَعْدِىّ، ومنهم من ابتكر فنوناً جديدة لم يعرفها الجاهليون من قبل ، كما فعل عبدُالله بن سَبْرَةَ الجَرْشِىُّ فى رثاء يده .

وقد وسمت شعر الفتوح سمات خاصة ، تجلت فى التخلص من المقدمات الغزلية الطللية ، وكثرة المقطوعات التى كانت نتاجاً طبيعياً لسرعة الحركة الخاطفة فى ميادين القتال ، كما شاع وزن الرجز فى هذا الشعر لمناسبته النزال والمقارعة . وصَدَرَ الشعراء عن روح الجماعة المؤمنة ، وشاع فى شعرهم التسليم بقضاء الله ، والترامى على حياض الموت ، احتساباً لوجه الله . وبدأ هذا الشعر بسيطاً وعفوياً وتلقائياً ؛ فهو وحى اللحظة دونما تحبير أو تنقيح ، حتى إن كثيراً من قصائده ومقطَّعاته بدت مهلهلة النسج ، ضعيفة البناء .

وقد لُحِظَ هذا الشعر بعامة فى صدر الإسلام : لَحَظَه الأصمعى ، وابن سلام ، وابن خلدون . فقد علق الأصمعى على شعر حسان بن ثابت بقوله[1] :ــ « والشعر نَكِدٌ ، بابه الشرُّ . فإذا دخل فى الخير ضعف . هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره ».

ويقول فى موضع آخر :ــ « شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه فى الإسلام لحال النبى ﷺ » .

أما تبرير ابن سلام لما أصاب الشعر من ضعف ؛ فهو أن الإسلام جاء فتشاغلت العرب عن الشعر ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، وَلَهَتْ العرب عن الشعر وروايته .

---

(١) **قضايا الشعر فى النقد العربى** جـ١ ص ٢٧٤ للدكتور إبراهيم عبد الرحمن .

وإلى قريب من هذا يذهب ابن خلدون فى مقدمته حيث يقول :ـــ

« إن العرب قد انصرفوا عن الشعر أول الإسلام ، بما شغلهم من أمر الدين ، والنبوة والوحى ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونَظْمه ، فَأُخرسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض فى النظا م والنثر زماناً . ثم استقر ذلك ، وأونس الرشد من الملَّة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وخطره ، وسمعه النبى ﷺ ، وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى دَيْدنهم فيه »

وتكشف هذه الآراء جميعاً عن مقولة واحدة ، قوامُها أن الإسلام منذ ظهوره ، قد شغل العرب عن الشعر ، بكتابه وسُنَّته ، وبالغزوات والفتوح ؛ مما دعا أكثر الشعراء إلى الانصراف عن نظمه . إن تغير القيم الجاهلية إلى قيم إسلامية ، وسمو النص القرآنى ، وارتفاع مستواه الفنى ، قد ترك فى نفس الشاعر القديم آثاراً حادة من الحيرة بين قيمه القديمة ، وتعاليم دينه الجديد بحيث انتهت به هذه الحيرة الفنية والدينية إلى جمود عاطفى وفنى ، تجلت آثاره البعيدة فى هذه الأشعار المبتذلة من شعر حسان وغيره من شعراء المسلمين .

وقد قفز بعض الدارسين المحدثين – وبخاصة المستشرقون منهم – عبر هذه المقولة إلى تقرير نتائج خطيرة ، تتصل بموقف الإسلام من الفنون بعامة ، وعداء الرسول للفن الشعرى ، الذى كان سجلاً لقيم الجاهلية ومُثُلها ، وهى التى جاء الإسلام للقضاء عليها . ويستدلون على ذلك بأن ظهور الإسلام لم يخلق شاعراً واحداً فى أمة الشعراء . وحتى أولئكم الشعراء المعروفون ، الذين كانت لهم مكانتهم الشعرية فى الماضى ، قد أمسكوا عن قول الشعر كلبيد بن ربيعة ، الذى كان شعره فى الجاهلية من خير الأشعار ، كما تصوِّر ذلك معلقته ، على الرغم من أنه عاش فى ظل الإسلام مايقرب من ثلاثين عاماً .[1] .

---

(١) المرجع السابق .

والحقيقة التى أميل إليها فى شأن الشعر فى ضوء ماجاء بالقرآن الكريم هى أنه يجب أن ننظر إلى هذا الشعر على ضوء أسباب النزول وظروفه(١) ؛ لأن تلك الآيات التى ارتبطت بقيمة الشعر والشعراء فى القرآن الكريم ، إنما تنسب جميعاً للمرحلة الأولى من مراحل الدعوة الإسلامية ، حين شغل النبى والمسملون بمجادلة الكفار ، حول النبوة ، وحقيقة القرآن ، فهى جميعها آيات مكية تتصل بالصراع الجدلى بين الرسول ومعارضيه ، سواء ماكان منها خاصاً ينفى صفة الشاعرية عن النبى والقرآن ، من مثل قوله تعالى :ـ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾. (٢)

ومن مثل قوله تعالى :ـ ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (٣)

وقوله :ـ ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤)

وقوله :ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ (٥)

وقوله :ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٦)

---

(١) المرجع السابق .
(٢) سورة يس الآية رقم : ٦٩ .
(٣) سورة الانبياء الآية رقم : ٥ .
(٤) سورة الصافات الآية رقم : ٣٦ ، ٣٧ .
(٥) سورة الطور الآية رقم : ٣٠ ، ٣١ .
(٦) سورة الحاقة الآية رقم : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣

وسواء مانزل منددًا بشعراء المشركين وتوعدهم وهو قوله تعالى :ـــ

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (١)

وليس من شك فى أن إلحاح القرآن الكريم على نفى صفة الشاعرية عن النبى ، ونفى صفة الشعر عن القرآن ، على النحو الذى رأينا فى الآيات ، لا يدل بأية صورة من الصور على معاداة الإسلام لهذا الفن ، الذى استمع إليه الرسول الكريم ، وشجَّعه ، وأثاب عليه ، وإنما هو فى حقيقته يهدف إلى تنزيه القرآن والرسول عن أن يوصفا بصفات الشعر ، وما ينبغى له من إغراق فى الوهم ، وتحليق فى الخيال ، بالقدر نفسه الذى يُنَزِّهان به عن الكهانة ، وما ينبغى لها فيما يختص بما جاء فى القرآن ، وما بشر به الرسول وأنذر ، من أمور الغيب والبعث والحساب ، والجنة والنار ، والتأكيد على أن ذلك كله حق لا وهم فيه ولا خيال ولا أحلام .

ولا خلاف بين المفسرين فى أن المقصود بقوله تعالى :﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾(٢) هم الشعراء الذين آذوا النبى ﷺ ، من مثل كعب بن الأشرف ، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى ، وهبيرة بن أبى وهب ، والغاوون هم الذين أذاعوا هذا الشعر ، وروَّجوا له وراءهم ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم : عبدالله بن رواحة ، وحسَّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، الذين نصروا النبى ، ودافعوا عنه بألسنتهم .

---

(١) سورة الشعراء الآية رقم : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٢) سورة الشعراء آية رقم : ٢٢٤ .

وهكذا فإن الإسلام لم يقف من الشعر بعامة موقف العداء ، إلا فى حدود مايتصل منه بهجاء الرسول ، ومعارضة الدين الجديد ؛ أى من حيث هو سلاح كانت تستغله طائفة ظالمة من الشعراء ، للتشكيك فى نبوة الرسول ، والغض من قيمة القرآن .

أما بعيداً عن هذه الظروف فإن فى الشعر من النفع والنصرة ، ما يعكس استثناء القرآن فَيْلَقَ الشعراء المنافحين عن الدين ، ممن انتصروا من بعد ماظُلموا ، وإن من الشعر لحكمة ، كما قال رسول الله ﷺ ، الذى كان يتذوق الشعر ، ويحرص على الاستماع إليه ، ويدعو الشعراء إلى إنشاده بين يديه ، ويحرضهم ، ويجزيهم عليه .

• • •

٢

يقرر التاريخ الأدبى أن العصر الأموى يبدأ فى عام الجماعة سنة ٤١ هـ ، وذلك عندما استقر أمر الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، إثر تنازل الحسن بن على عنها . وكان الصراع بين على وعائشة فى واقعة الجمل على أثر مقتل عثمان قد انتهى بانتصار الخليفة الرابع ، حتى خرج عليه معاوية ، وطالبه بدم عثمان ، وحاربه فى صفين . وكاد الأمر يستقيم لعلى لولا لجوء معاوية إلى التحكيم ، الذى ميَّع المسألة ، فتفرق المجتمع الإسلامى أضراباً وشيعا ، وخرج على علىٍّ فريقٌ من أتباعه ، عرفوا بالخوارج ، فحاربهم وحاربوه ، وانتهى الصراع بين الشيعة والخوارج بمقتل علىٍّ على أيدى الآخرين .

وبعد أن استقام الأمر لمعاوية ، انتقلت حاضرة الخلافة من الكوفة إلى دمشق وعادت إلى الدولة الإسلامية وحدتها . وكانت قد امتدت حدودها بعيداً فى الشرق والغرب ، بعد حركة الفتح الخاطفة التى شملت العراق وفارس وخُراسان والشام ومصر وأفريقية ، وكانت نتيجة هذا تحول المجتمع الجاهلى العربى البدوى إلى مجتمع إسلامى متحضر ، تشارك فى بنائه العناصر الجديدة التى دخلت فى حوزة الدولة الإسلامية .

ومع التطور السياسى والاجتماعى الذى شهده المجتمع الأموى ، كان لابد للشعر أن يتطور ويتجدد ، إلا أن هذا التطور قد وقع أساساً للمضمون دون الشكل ؛ إذ أنه يبدو أن الشعراء – وإن استجابوا لمتطلبات المجتمع الجديد فى رؤاهم ومواقفهم – لم يستطيعوا الفِكَاك من إسار صورة القصيدة العربية التقليدية ، بل إن الفحول من شعراء المديح فى العصر الأموى قد أسهموا فى ترسيخها ، فظلت تشكيلاتهم الفنية تمضى وفقاً للنسق الموروث وتخضع لمعاييره .

وهذا الذى نقول يقع وسطاً بين مقولتين متطرفتين : إحداهما تذهب إلى أن الشعر فى عصر بنى أمية – بجانبيه من الشكل والمضمون – لم يكن إلا امتداداً للشعر الجاهلى ، وأن العرب استمروا ينظمون شعرهم بعد الفتوح الإسلامية ، ونزولهم الأمصار المفتوحة ، على شاكلة نظم الأسلاف ، حتى أرسل الله إليهم الموالى فى العصر العباسى فطوروا لهم صورة شعرهم ، وجددوا فى إطارها وخطوطها وألوانها فنوناً مختلفة من التجديد .

أما المقولة الثانية ، فتجعل التسليم بهذا الحكم تسليماً بأن العرب لا يزيدون على أن يكونوا أحجاراً ، ينقلون من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن طور البداوة إلى طور الحضارة ، دون أن يتأثروا بما يصادفهم فى كل ذلك من مؤثرات . ومن ثم فإنه من غير المعقول أن الشاعر الذى ورث كسرى وقيصر ، وخرج من صحرائه ، ونزل الشام والعراق وغيرهما من الأقاليم الإسلامية ، واستبدل المدينة بالحِمى ، وأصبح يعيش حياة معقدة بفعل الحضارات الفارسية والإغريقية الرومانية ، التى غزاها عسكرياً ، وغزته حضارياً . ليس بمعقول أن يظل ينظم الشعر بالصورة نفسها التى كان ينظمه بها الجاهلى القديم ، الذى كان لا يشغله إلا السعى وراء قوته .

والواضح أن المقولة الثانية تهدف إلى محو المقولة الأولى ، منكرة تماثل صورة الشعر فى عصر بنى أمية مع صورته فى العصر الجاهلى . لقد اختلفت فى عصر بنى أمية مع صورته فى العصر الجاهلى . لقد اختلفت الحياة فى ينابيعها ، ووقع العربى الأموى تحت مؤثرات دينية وحضارية لم يكن يعرفها فى جاهليته فتبدلت نفسيته وعقليته ،

ونظام المجتمع الذى أصبح يحيا فيه ، بل ووسائل معيشته وأساليبها . ومن هنا فإن هذه المقولة تريد أن تؤكد أن العرب – شأنهم شأن غيرهم من الأمم – يتطورون تأثراً بالزمان والمكان ، والأحداث بينهما ، وأن عالم الشعر الأموى عالم جديد ، مباين أشد المباينة وأوضحها للعالم الفنى الجاهلى .

إن تطوراً وتجديداً وقعاً فى شعر العصر الأموى ، بناء على التطور السياسى والاجتماعى والدينى والعقلى[1] ، فظواهر الترف والفراغ السياسى فى الحجاز ، واتساع موجة اللهو والغناء ، حولت الشعر عن طبيعته المألوفة ، من غزل عاشق يصف حبَّه لمعشوقته ، إلى طبيعة جديدة هى غزل معشوق يصف حب المرأة العاشقة له . كما أنتج الانغماس فى اللهو ابتداع الوليد بن يزيد فى الشام فنَّ الخمرية فى العربية ، قبل أبى نواس وأضرابه من العباسيين .

ولقد أثر التمسك بالعقيدة الإسلامية ، فأخذت الصفات الدينية تظهر فى قصائد المديح والهجاء ، تُخْلع على الممدوحين ، وتُخْلع على المهجوِّين . وكان من آثار نهضة الحياة العقلية فى هذا العصر أن عمَّت موجة من المناظرات حول حقائق الأشياء : دينية وغير دينية . وتحت تأثير هذا نشأت نقائض جرير والفرزدق والأخطل ؛ دفاعاً عن قبائلهم وقبائل أخرى ، وهجوماً على الخصوم ، ودفعاً لحججهم . وهى مناظرات تبتعد عن الأصالة ، وتهدف إلى تزجية الوقت والفراغ الهائل ، الذى واجهه العرب حين استقروا فى المدن الجديدة ، وحين كَفَتْهم الفتوح والأعطيات التى قررتها الدولة أرزاقهم ، فلم يعرفوا كيف يمضون أوقاتهم . ولكن جريراً والفرزدق يحوِّلون الهجاء القديم إلى هذه النقائض ، ليسلوُّهم بها ، وليساعدوهم على قطع أوقات الفراغ . فكان الناس يخرجون للفرجة عليهم فى الأسواق ، كما نخرج الآن إلى دور الخيالة ، والعروض المسرحية .

وتحت هذه الظروف العقلية ، ونتيجة للظروف السياسية التى فرقت الأمة الإسلامية آنذاك فرقاً وأحزاباً ، تتناحر فيما بينها ، استطاع شاعر الشيعة الكميتُ

---

(١) **التطور والتجديد فى الشعر الأموى** ، للدكتور شوقى ضيف .

ابنُ زيد الأسَدِىّ أن يخطو بالمناظرة والجدال خطوة أخرى ؛ إذ كان يدين لزيد بن على ابن الحسين ، رأس المذهب الزيدى . وكان فى الوقت نفسه تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس الاعتزال ، فوهَبَنا لأول مرة أولَ دفاع مذهبى عقلى وسياسى فى الشعر ، يدعَم فيه نِحْلَته ، ويُجَالد عنها فى ديوانه المسمى بالهاشميات . ويقرر فيه مقولة الزيدية ، ويعرض لأفكارها عرضاً مفصلاً .

ولما احتاج المسلمون الجدد ، من أبناء الأمصار المفتوحة ، أن يتعربوا ، ويتفقهوا فى الدين ، نهض علماء العربية ، ورواة اللغة البصريون بصفة خاصة للوفاء بهذه الحاجة ، وجمعاً لمادة اللغة ومتونها ، فأعدت طائفة من الشعراء ، لتصنع لها شعراً يعينها على بحوثها اللغوية . وقد برع فى هذا المجال رُؤْبَةُ بنُ العجَّاج ، الذى كان يتعمق الغريب والوحشى والشارد فى اللغة ، معتمداً على حسه اللغوى ، وسَليقته العربية فى نحت الألفاظ واشتقاقها ، وتحريف صورتها فى أصواتها وحركاتها . وبذلك صارت أراجيزه متوناً لغوية . ومن ثم فإنها أقدم صور الشعر التعليمى فى العربية . ولعل ذا الرُّمَّة – الشاعر البدوى الذى نزل البصرة والكوفة ، وتلقَّن ما كان بهما من ثقافات – على شغفه وافتتانه بصحرائه وموطنه القديم – يلخص لنا ما آل إليه حال الشاعر البدوى المتحضر فى عصر بنى أمية . فقد راح يرسم لوحات رائعة للصحراء ، تنفصل انفصالاً عن أشعار أسلافه الجاهليين ، وتتداعى فيها الألفاظ والصور تداعياً غير مترابط ، يملأ شعره بالرؤى والأحلام .

وهكذا فإن كل هذه الألوان الجديدة ، والمتطورة ، لتدل دلالة قوية على أن تطوراً وتجديداً قد حدثا للشعر على عصر بنى أمية . وأن العرب لم ينتظروا العصر العباسى ليجدد لهم الموالى شعرهم ، ويُحدثوا فيه فنوناً مختلفة من التطور ، بل قد سبقوا إلى ذلك فى العصر الأموى ؛ إذ أحسوا إحساساً عميقاً واضحاً بأنهم امتداد لقديم ونهوض لجديد .

ويأتى رأينا ليتفق مع كل من المقولتين فى جانب واحد ، فهناك تجديد وتطور قد وقعا للشعر الأموى كما مر ، وهناك سيطرة للقيم والتقاليد الفنية الموروثة ، لم تزل تبسط

هيبتها على هذا الشعر . فكل تلك الألوان الشعرية التى ظهرت فى دواوين شعراء العصر الأموى ، لم يقع التجديد والتطور فيها إلا فى المضمون ، من الغزل الحسى فى الحجاز ، إلى الغزل العذرى فى البادية ، إلى الخمريات التى نشأت فى الشام ، على يدى الوليد بن يزيد ، إلى شعر الفِرَق الإسلامية المختلفة من الشيعة والخوارج والزبيريِّين والمُرْجئة ، والمعتزِلة ، إلى غير هذه من الألوان .

أما الشكل ، فقد ظل على حاله القديم ، لم يتغير فى هيكله العام ، وإنما وقعت فيه بعض التغيرات الجزئية ، التى نرصدها فيما يلى – وهى بدورها أثر من آثار المضمون ، الذى حدث وفقاً لتغير الأوضاع الحضارية فى المجتمع الأموى :

– كان طبعياً فى مثل هذا المجتمع ، وتحت تأثير هذه الظروف الجديدة ، أن يكون الحب الذى يستغرق الشباب ، هو ذلك الحب على الطريقة الحجازية ، الذى يرى فى المرأة متاعاً ليس غير ، ولا يؤمن بالتوحيد فيه ، فتتعدد معشوقاته . وقد انتشر هذا اللون بين شباب الطبقة الثرية الفارغة ، كما نرى عند عمر بن أبى ربيعة .

والجديد فى هذا الحب ، وفى الشعر الذى يعبِّر عنه ، أنه لم يعد كما كان الغزل فى الجاهلية ، مقدمات تقليدية فى مفتتحات القصائد ، وموضوعاً من موضوعات متعددة تضطرب فيما بينها القصيدة . وإنما أصبح موضوعاً قائماً برأسه ، تفردُ له القصائد برمتها . بل يفرد له ابن أبى ربيعة ديواناً كاملاً ، لا يتجاوزه فيه إلى موضوع آخر . وكأنما تخصص به ، لا يتجاوزه إلى غيره من موضوعات الشعر .

وثمة أمر آخر جديد فى هذا الغزل ، وهو كثرة ظهور المقطوعة القصيرة ذات الموضوع الواحد ، وانتشار الأوزان القصيرة والمجزوءة ، التى تتلاءم مع طبيعة الغناء ، الذى كان كثيرٌ من الغزل يُنْظَم من أجله .

وفى بادية نجد والحجاز كانت الصورة المقابلة للغزل الحجازى سائدة ، وهو انعكاس طبعى للحياة البدوية ، التى عاشتها قبائل البادية فى ظل تعاليم الإسلام ، التى خلصتهم من روح الجاهلية القديمة ، وهذبت من نفوسهم ، ودفعت إليها بالفضيلة والعفة ومكارم الأخلاق ، والرقة ، والبر بالمرأة . وقد عزلتهم بيئتهم عن التأثر

بما تأثر به مجتمع الحجاز من التيارات الحضارية ، فظل مجتمعهم محتفظاً بطوابعه البدوية ، وبحياته الاجتماعية التقليدية فضلاً عن حياة الشظف والجدْب ، التى كانت تسيطر على مقدراتهم الاقتصادية ؛ ولهذا كان الحرمان هو السمة الغالبة على مجتمعهم فى ظل إعلاء الغرائز ؛ ولهذا ساد الحب العذرى الذى يفترق عن الحب الحسى ، الذى عرفه مجتمع الحجاز .

وصورة هذا الحب ، نتيجة لكل هذا ، مأساة حزينة بدايتها أمل ، ونهايتها يأس . وبين البداية والنهاية أحداث تتلاحق ، يسيطر عليها الحرمان ، وتُغَشِّيها الدموع والأحزان . ولكن روحاً من الوفاء والإخلاص والتوحد ، والطهر والعفة ، تتسامى به عن رغبات الحس وأهوائه ، إلى عالم مثالى روحانى خالص[1] وقد اشتهر بهذا الحب ، وصوَّره فى شعره شعراء عذريون كُثُرٌ مثل عُرْوَةَ صاحب عفراء ، ومجنون ليلى ، وكثيرٍّ عزة ، وجميل بثينة ، وقيس بن ذريح صاحب لبنى . وشعر العذريين بهذه الصورة جديد فى الغزل العربى ، خلافا لمن يرونه وريثاً لشعر المتيَّمين الجاهليين . فلا شك أن الإسلام قد أضفى عليه من تعاليمه ومُثُله سماتٍ وخصائص جديدة ، وطبعه بطوابع تختلف عن الطوابع الجاهلية ، ولعل أبرز ألوان التجديد فيه ظاهرة التخصص التى رأيناها فى شعر الغزل الحسى بالحجاز . فقد أفرد الشعراء العذريون قصائد بِرُمَّتها لهذا الحب الرومانسى الصافى ، الذى أصبح معيناً يستمده شعراء الصوفية فى التعبير عن مواجدهم الروحية ، وحبهم الإلٰهى فيما بعد .

وقد مثلت بيئة العراق طوال عصر بنى أمية ، وبيئة الحجاز منذ مقتل الحسين ، إلى مقتل عبد الله بن الزبير ، مركزين للمعارضة السياسية الإيجابية التى بلغت حدَّ مقاتلة الأمويين .

والظاهرة الجديدة فى شعر المعارضة السياسية ، سواء فى ذلك شعر الخوارج والشيعة والزبيريين ، والمعتزلة والمرجئة والأمويين هى الالتزام ، فقد ظل كل شاعر ملتزماً بالخط السياسى الذى تَبَنَّاه حزبه : فشعراء الخوارج من أمثال قَطَرى بن الفجاءة ،

---

(١) حركات التجديد فى الأدب العربى للدكتور يوسف خليف ص ٤٧

والطِّرِمَّاح بن حكيم ، وعِمْران بن حِطَّان يلتزمون بالفدائية ، ويبيعون أرواحهم لمبادئهم ، مؤمنين بقضيتهم التى خرجوا من أجلها ، وهى أن الخلافة حق للمسلمين جميعاً ، وليست وقفاً على آل البيت ، ولا على أية جماعة من جماعات المسلمين .

وقد التزم شعراء الشيعة كالسَّيد الحِمْيَرى ، وكثيِّر عَزّة ، والكُمَيْتِ بن زيد بقضيتهم التى تقرر أن الخلافة حق لبنى هاشم وعلى الأخص لأبناء على بن أبى طالب .

أما الزبيريون فكانوا يرون أنها حق قريش ؛ إذ أن منها النبى ﷺ ، ومنها خلفاؤه . والأمر شورى بين المسلمين ، يختارون منها من يرونه كفئا لها ، وأن الحجاز يجب أن تكون قصبة الخلافة ، كما كان الأمر على عهد النبى وخلفائه . وقد عبَّر شاعرهم عبيد الله بن قيس الرقيات عن فكرهم فى شعره ، فرأى – كما رأى شعراء الفرق الأخرى – أن الأمويين قد افتأتوا على الحق ، حين نقلوا الخلافة إلى دمشق ، وحين فرضوا أنفسهم على جماعة المسلمين .

وهكذا تركزت حركة المعارضة لسياسة الأمويين فى العراق ، فى حين كانت الحجاز إبَّان حكم الزبيريين مركزاً آخر للمعارضة . ويُعَدُّ الشعر السياسى فى عصر بنى أمية لوناً جديداً فى الشعر العربى ؛ إذ أنه شعر حزبى ، ولم يعرف العرب من قبل شعراً حزبياً يقوم على إثبات حق طائفة فى وجه الطوائف الأخرى ، مستعيناً على ذلك بكل وسيلة من وسائل الإقناع ، والجدل العقلى .

وقد أقام الشعراء قصائدهم على أساس وحدة موضوعية تركيبية ، وخلصوها من تعدد الموضوعات ، والمقدمات التقليدية ، فبينما استبدل بها الخوارج مقدمات فروسية ، تتحدث عن الجهاد ، والترامى على حياض الموت من أجل المبدأ أعطاها الكميت قيمة سلبية ، إذ رفض فيها الوقوف على الأطلال ، والبكاء على الديار ، والتحسر على الحبيبة الراحلة ، إذ هو مهتم برسالة أسمى من هذا كله ، فقد وهب كل قلبه وعواطفه لحب آل البيت النبوى الشريف .

وقد استطاع شعراء النقائض بدورهم أن يحوِّلوا قصيدة المديح والفخر والهجاء إلى نقائض يُزْجون بها الفراغ الذى اكتنف حياة الناس فى مجتمعاتهم الجديدة . وقد

عَرَف الشعر فى صدر الإسلام النقائض ، كما كان بين قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت ، وبين حسان بن ثابت وعبد الله بن الزِّبَعْرَى . إلا أن النقائض الأموية تفترق عما سبقها من حيث إنها أصبحت فناً معقداً يقوم على ثقافة عميقة بتاريخ القبائل وأنسابها ومآثرها ومثالبها ، وعلى تطويع ماثقفه العقل العربى من قدرة على الجدل والحوار والاحتجاج للقيام بهذا الغرض ، فضلاً عن الانتماءات السياسية الجديدة ، التى أُزْرَتْ بالانتماء القبلى ، حتى إننا لنرى جريرا التميمى يقف فى مواجهة الفرزدق التميمى – أيضاً – لصالح قيس .

إننا لانجاوز الحقيقة إذا قلنا إن التطور والتجديد اللَّذَينِ وقعا للشعر الأموى ، لم يتجاوزا المضمون إلى الشكل الخارجى ، الذى استوعب كل تلك الألوان من التطور ، وأثبت بذلك قدرته على الاستمرار .

• • •

٣

وتجدر بنا العودة للحديث عن النقائض ، التى جمعت بين أشهر شعرائها الثلاثة : الأخطل وجرير والفرزدق ، مع عدد آخر من شعراء هاشميين . إن القصيدة لاتسمى « نقيضة » إلا إذا كانت تنقض قصيدة أخرى ، وفى النقض معنى المعارضة والهدم . فكأن النقيضة هى القصيدة التى تعارض وتفنِّد ماجاء فى قصيدة أخرى . وعلى هذا الأساس كان يحدث أن يقول الفرزدق قصيدة يفتخر فيها ، ويهجو منافسه جريرا ، فيأتى جرير ويرد على هذا الهجاء بهجاء مضاد ، مع تكذيب منافسه فيما افتخر به .. وهنا نقول : إن قصيدة جرير نقيضة لقصيدة الفرزدق ، فالنقيضة – على هذا الأساس – هى القصيدة الثانية ، أى التى تقال على سبيل الرد والمعارضة .

ولكن معنى الكلمة أطلقه النقاد على القصيدة الأولى أيضاً ، فهى نقيضة ، بمعنى منقوضة . وكل من القصيدتين نقيضة ، بمعنى ناقضة لغيرها ، وبمعنى منقوضة بها أيضاً .

وفيما يتصل بالنقائض الشهيرة فى الأدب العربى ، لكل من جرير والفرزدق والأخطل ، وغيرهم من الشعراء الذين جذبتهم تلك المعركة ، فقد اتسمت هذه النقائض بعدد من الخصائص : **فمن ناحية المحتوى** تشتمل النقيضة حتماً على الهجاء ، وغالباً مايضم إليه الفخر . إلى جانب عدد من الموضوعات الأخرى كالغزل ، وكالمديح أحياناً ، وذلك عندما يتطرق الشاعر فى معرض غرض ما إلى هجاء خصمه ، والفخر عليه .

والذى ينظر فى نقائض هذه المجموعة من الشعراء يجد أن قطبيها الأساسيين هما جرير والفرزدق ، وأن الأخطل قد أُقحِم بينهما ، منضما إلى صف الفرزدق ، ومتعرضاً لهجاء جرير ، وكذلك كان الحال مع عدد كبير من الشعراء مثل : الراعى النُّمَيْرى ، وعمر بن لَجَأ التَّيْمى ، وغسَّان السَّلِيطى ، والبعيث المُجَاشِعى . ويبدو أن جريراً كان فخوراً بصموده أمام هذا العدد من الشعراء الذين يهاجونه ، هذا العدد الذى بلغ – فى بعض الروايات على لسان جرير – ثمانين شاعراً .

وقد اتخذ جرير من تواضع عشيرته ، ورقة حال والده ، فرصة لإظهار تفوقه الفنى ، الذى مكَّنه من تعويض هذا النقص ، وإظهار الغَلبة على مجموعة كبيرة من الشعراء ، الذين يتفوقون عليه فى سُلَّمِ النسب . ومع ذلك فقد لحَظ النقاد طول باع الفرزدق فى الفخر على جرير ، وإن كان لا يدانيه فى أفانين الهجاء ، فى حين كان الفرزدق يتباهى بعشيرته بنى دارم ، لجأ جرير إلى إلغاء عشيرته الأدنين – بنى كليب – وتصاعد بفخره إلى تميم ، القبيلة الكبيرة ، التى ينتسب إليها الفرزدق أيضاً . كما لجأ – فى محاولة للصمود الفنى – إلى إطالة النسيب فى قصائده ، ربما كتعويض عن قِصَر باعه فى الفخر . أما فى هجائه ، فقد لجأ إلى السقطات الخلقية للفرزدق ، وإلى تعيير الأخطل بمسيحيته ، والتباهى عليه بإسلامه . على حين لجأ منافسوه – خاصة الفرزدق والأخطل – إلى تعييره بوضاعة أصله ، وألحُّوا على عشيرته بنى كليب . كما استغلوا فى عدد غير قليل من المرات أسلوب المجانسة ، الذى أتاحه اسم العشيرة ، فوصفوا جريرا بأنه (كَلْبُ بنى كُلَيْب) .

أما من ناحية الشكل فإن النقيضة لابد أن تجيء على غرار نقيضتها وزناً وقافية ، وهذا هو الطابع المميز لهذه القصائد عن غيرها من قصائد الهجاء المتبادلة بين الشعراء .

وتَلْفِتُنا الصفة الأخيرة إلى فكرة نعتقد فى صحتها ، وهى أن مُهَاجَيَات أولئك الشعراء لم تكن تعنى العداء الحقيقى بينهم ، لقد نظر أصحابها إليها ، كما نظر معاصروهم إليها ، على أنها ضرب من ضروب المباريات الفنية لا أكثر ، بصرف النظر عن موضوعها الذى قُدِّرَ له أن يكون ذا جاذبية خاصة ، فى مجتمع القبائل العربية المتنافسة بالعراق ، ونعنى بذلك موضوع الهجاء .

والسؤال الذى كان مطروحاً دائماً هو : أى هؤلاء الشعراء أشعر ؟ وأيهم استطاع أن يَبُذَّ منافسيه فى فن القريض ؟ ولهذا كان الخلفاء والولاة كثيراً مايجمعون بينهم – وبخاصة جرير والفرزدق – لسماع أشعارهما . وكان هذان الشاعران على علم بهذه الحقيقة ؛ ولهذا تشير أخبارهما إلى أن كلا منهما كان موضع احترام وتقدير من صاحبه . لقد وصف جرير الفرزدق بأنه (نَبْعَةُ الشعر) ، ونوَّه الفرزدق كثيراً بمنافسه . وفى أخباره أنه كان يقول القصيدة ، ثم يتنبأ بالكيفية التى سيرد بها جريرٌ عليه عندما ينقض قصيدته . وكذلك كان يفعل جرير . كذلك حَمِىَ الفرزدق وأَنِفَ من أن يتعرض شاعر ذو مستوى متواضع مثل (عمرَ بن لجأ التيمى) لمنافسه القوى جرير ، بل لقد تطوع الفرزدق فهجا ذلك الشاعر الذى لاتسمح له مكانته الفنية بأن يقحم نفسه بين عملاقين كبيرين هما : جرير والفرزدق . فقال الفرزدق :ـــ

وما أنت – إن قَرْما تميم تساميا أخا التَّيْم ، إلا كالوشيظة فى العظم

وقال ابن سلام :ـــ « وكان الفرزدق قد حمِى وأنِف لجرير أن يتعلق به التيمى » . فلما مات الفرزدق ، حزن عليه جرير ورثاه رثاء مؤثراً ، وقال :ـــ « والله إنى لأعلم أن بقائى بعده قليل » . وقد مات فى السنة نفسها فعلا (١١٠هـ) بعد

أن ظفر الشعر العربى بمجموعة من أقوى القصائد ، كانت المنافسة الفنية هى العامل الأول وراءها ، وإن اتخذت فى ظاهرها طابع الهجاء .

• • •

٤

على امتداد قرن تقريباً ، لم تهدأ المعارضة التى تصدت لبنى أمية ، ترميها بالاغتصاب والجور ، فى الشعر ، وبسهام الحرب فى ميادين القتال . وقد نجم عن هذا اضطرابات وفتن وقلاقل ، ساعدت – مع عوامل أخرى – على التعجيل بانهيار الدولة الأموية .

لقد نكصت تلك الدولة عن مبادىء المساواة والإخاء الإسلامى ، إلى العصبية القبلية ، فأعادتها جذعة ، وأذكت جذوتها من جديد ، واتخذتها وسيلة تميز بها بين عرب وعرب ، منحازة إلى القبائل القحطانية فى مواجهة القبائل المُضَرِيَّة ، التى ساندت علىّ بن أبى طالب فى مواجهة معاوية ، والخارجين على مروان بن الحكم فى مرج راهط . وقد ظل آخر خلفائهم مروان بن محمد طوال فترة حكمه فى ميادين القتال ، يحاول – دون جدوى – تثبيت دعائم ملك الأمويين . واجتمع على حربه جبهة من الخوارج والشيعة والموالى ، وعدد غير قليل من أبناء بنى أمية أنفسهم . وكانت آخر المعارك التى أنهت ملك الأمويين موقعة الزاب الأكبر ١٣٢ هـ التى انتصر فيها الفرس بقيادة أبى مسلم الخراسانى على جيش الخلافة الأموية .

وقد كان للصراع بين العرب والموالى فى عهد تلك الدولة العربية ، أكبر الأثر فى زوالها على أيدى الفرس ، الذين استهوتهم دعوة العباسيين فى مستهل القرن الثانى الهجرى إلى الرضا من آل محمد ، ليفيدوا من حب الناس آل البيت ، وليحولوا ولاءهم للعلويين إليهم . وقد نجح دعاة العباسيين – وكان معظمهم من التجار – فى استقطاب أهل فارس وخراسان ، وتأمين ولائهم للعباسيين ، الذين زعموا – بعد أن دخلت جيوشهم إلى الكوفة – أنهم ورثوا الإمامة عن العلويين ، وأنها آلت إليهم لما نزل عنها بنو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن على بن العباس . وهكذا نرى

أن الدولة العباسية قد قامت فى حقيقة أمرها على أكتاف الفرس ، الذين عانوا من التفرقة العِرْقية على عهد بنى أمية .

وبعد أن وطَّد أبو العباس السفَّاح أركان الدولة الجديدة تسلم قيادتها أبو جعفر المنصور ، الذى شرع فى بناء بغداد ، واستوزر وزراء على النمط الفارسى . وولى ولاة وعمالاً فارسيين . ومنذ ذلك الحين اتَّسم حكم الدولة العباسية بسمات فارسية خالصة ، تجلت فى مظاهر الحياة الاجتماعية وأنماطها ووسائلها .

وقد أخذ الفرس يشاركون فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية مشاركة إيجابية ، وسرعان مارجحت كفتهم ، وعلا صوتهم ، واشتطَّ شعراؤهم يفخرون بأنفسهم وبآبائهم . بل ويسخرون من العرب ، ويستهزئون بهم وبأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ونمط حياتهم ، وحضارتهم البدوية ، على نحو مافعل بشَّار فى بائيته :ـــ

هل من رســـول مخبـــــر عنـــى جميـــع العـــــرب

فقد تحدث فيها عن فرحته بانتصار الجيش الفارسى ، على بنى أمية ، وعظَّم حضارة الفرس وملوكهم ، وذمَّ العرب وحياتهم الجاهلية . وكذلك فعل أبو نواس فى قصيدته التى قال فيها :ـــ

ولا تأخذ عن الأعراب لهـواً ولا عيشاً ، فعيشهمُ جديب

وقد مضى أبو نواس يقارن فى هذه القصيدة بين الأعراب الغلاظ الذين يحْيَوْن حياة بدائية ، والفرس أصحاب الحضارة .

وكان من شأن تسلط الفرس بعاداتهم وأخلاقهم ، ونمط حياتهم ، على المجتمع الإسلامى فى ذلك العصر أن شاع اللهو والمجون فى أشكاله المختلفة ، سواء ماكان منها مقبولاً أو مرذولاً : فمن مظاهره المقبولة الغناء ، الذى كان ثمرة للفتوح الإسلامية حتى نضجت نظرية الغناء العربى فى الأمصار الإسلامية لعهد بنى أمية ، وأصبحت قصور العرب تزخر بالمغنِّين والمغنيات ، وقد ازدهر الغناء فى العصر العباسى بشكل أوضح .

أما أشكال اللهو المرذولة كالخمر والعبث والفُحش ، فقد شاعت ، واشتد التهافت عليها ، واتسع المجون اتساعاً كبيراً ، وصل إلى غايته فى عهد الأمين . وقد ساعد على اتساعه كثرة الرقيق والجوارى ، وسعة الثراء ، وتدفق الأموال على الدولة ، وانتشار أسواق النخاسة ، ودور الغناء . وكان من شأن هذا أن يظهر فى شعر الشعراء العباسيين ، وبخاصة المولدون منهم كأبى نواس ، الذى جهر بالفسق إلى حد قوله :ـــ

ألا فاسقنى خمراً ، وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرًّا إذا أمْكن الجهر

وإلى أن يتباهى بتعاطى الحرام ، والتلذذ به ، كما فى قوله :ـــ

فإن قالوا حرام ، قل حرام ولكـن اللـــذاذة فى الحرام

وكما أن الصورة لاتكتمل إلا بالأسود والأبيض معاً ، فقد كان هناك إلى جانب اللهو والمجون والإفحاش نزوع إلى التقوى والاستقامة والزهد ، وهو أمر ضرورى ، ولعله نتيجة طبعية لاتساع رقعة الانحراف والزَّيْغ .

والزهد ظاهرة اجتماعية ونفسية ، يمكن أن تفسِّر لنا كثيراً من مظاهر الانحراف فى هذا العصر . ولعل امتزاج ظاهرتى المجون والزهد فى شعر أبى نواس ، يوضح لنا ما شاع من فكرته عن العفو ، التى يذكرها فى بعض شعره إذ يقول :ـــ

فقل لمن يدَّعى فى العلم معرفةً حفظتَ شيئاً ، وغابت عنك أشياء
لا تحظرْ العفوَ إن كنتَ امَرأ حرجاً فإنَّ حَظْرَكَـهُ بالديـن إزراء

وخير من يمثل هذا الاتجاه أبو العتاهية ، الذى كان شاعراً ماجنا فى صدر حياته ، ثم انقلب زاهداً ، يدعو إلى الحرمان من متع الدنيا .

وكان المُجَّانُ والزُّهَّاد على السواء يجدون فى ألوان الثقافة والفكر ، والفلسفة المتاحة – آنذاك – مايظاهر نزوعهم ويبرره ، كما أشرنا إلى نظرية العفو عند أبى نواس ، وكما نرى فيما يرمى به زهد أبى العتاهية من المَانَويَّة .

ولقد شاعت الثقافات الفلسفية المختلفة الألوان ، التى حملها من تحولوا إلى

الإسلام من أبناء الأمم الأخرى ، وقد بلغت الترجمة أوجها فى ذلك العصر ، وبخاصة عهد المأمون . وإن بدأت بداية مادية تَتَغيَّا النفع كالنُّظُم الديوانية والإدارية ، والحكم الفارسية ، وكتب الحساب والهندسة والفلك والتنجيم الهندية . ثم اجتهد المتكلمون فى بلورة فكرهم ، والدفاع عنه ، مستندين إلى ماترجم من الأنظار الفلسفية اليونانية ، التى ترجمها نساطرة العراق ، ويعاقبة أنطاكية ومصر . وهكذا أطل العباسيون من نافذة ثقافية واسعة على تراث العالم ، وامتدت أيديهم إلى ثماره اليانعة ، فاقتطفوا منه ماشاء لهم حظهم وقدراتهم وحاجاتهم .

ومع هذه الحرية الثقافية الواسعة ، أخذ أصحاب العقائد القديمة ممن تحولوا إلى الإسلام يتعصبون لعقائدهم ، إنْ سراً وإنْ جهراً ، وأخذت أفكار وأنظار كثيرة من تراثهم العقدى تظهر فى مقولاتهم ، حتى اقتضى ذلك إنشاء دار تتعقَّب الزنادقة فتحاكمهم ، وتضرب على أيديهم . وكان الشغل الشاغل لصاحب الزنادقة هو مطاردة المانويين ، الذين يدعون إلى ظاهر حسن هو اجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تُخْرِج إلى الناس عبادة الاثنين ، وتبيح زواج البنات والأخوات ، كما جاء فى وصية الخليفة المهدى لولده الهادى .

وقد تحدث الجاحظ عن بعض المثقفين ، الذين كانوا يظهرون الاستخفاف بالدين ، ويبيحون لأنفسهم مالا يبيحونه للعوام تظرفا ، وكذلك أشار أبو الفرج الأصفهانى إلى جماعة مُجَّان الكوفة ، الذين كانوا يجتمعون على الزندقة تمذهبا ، ومنهم بشار الذى قُتِلَ لهذا السبب . وكان يقدم النار على الأرض ، ويفضل إبليس على آدم . ومن هاتين الإشارتين يمكننا فى الزندقة رؤية لونين : **أحدهما** ينحو منحى الظرف والفن ، **والآخر** يتجه إلى العقيدة والمذهب .

ولا شك فى أن الأدباء – شعراء وكتَّاباً – أكثر تعرضاً للتأثر بهذه الثقافات والمذهبيات ، التى شاعت فى هذا العصر ، وقد انعكست بشكل جَلِيٍّ على أشعارهم ، وبخاصة من كانوا منهم نتاجاً للامتزاج الجنسى بين العرب والفرس ، وبين العرب والروم ، ممَّن يُسَمَّون بالمولَّدين . فلم يعد الشعر — بعد الجيل الثانى منهم —

قاصراً على العرب ، فامتدت مشاركة الموالى إلى الحياة الأدبية والفنية ، كما امتدت – من قبل – إلى الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية .

ونستطيع أن نميز فى هذا العصر بين جيلين منهم :

الأول هو جيل المخضرمين من الشعراء المحافظين ، وكان طَبَعيا أن يحتفظ هذا الجيل بالقديم ، لا يقطع صلته به ؛ إذ نشأ وترعرع فى عهد بنى أمية ، كبشار بن برد ، الذى زاوج فى شعره بين القديم الموروث الذى تربَّى عليه ، ونضج فى ظله ، والحديث المولَّد الذى ساد فى بقية حياته إثر الانقلاب العباسى ، فأفسح فى شعره إلى جانب العناصر التقليدية لمظاهر الحياة الجديدة ، والمجتمع المتطور بفعل الحرية ، واتساع الثقافة ، وتطور الفكر .

أما الجيل **الثانى** فمن أعلامه أبو نواس ، الذى انتهى إليه فن الخمريات فى أكمل صوره ، وقاد ثورة على التقاليد الفنية العربية الموروثة ، كان لها صداها فى تاريخ الأدب والنقد على السواء . ومن هذا الجيل أبو العتاهية ، الذى أهدر قيم الصياغة التقليدية ، وانحدر بلغة الشعر إلى مايشبه لغة الحياة اليومية ، الأمر الذى أدى إلى ردة فعل تجلت فى نهوض مسلم بن الوليد ، وتلميذه أبو تمام بمهمة إعادة لغة الشعر إلى ماكانت عليه من فخامة وجزالة ، وبناء القصيدة بناء قوياً شامخاً ، يشبه إلى حد بعيد جهد البرناسيين فى عصر النهضة الأوربية . وقد راح أبو تمام يدفع فى شعره بأفكار عميقة ، ويقيم صوره على أساس الطباق الفلسفى .

وعلى الجملة ، فإنه نتيجة لهذا الامتزاج الجنسى والثقافى ، وتأثراً بمعطيات الثقافة المختلفة ، التى ظهرت فى ظل العصر العباسى الأول ، فإن تغيراً واضحاً حدث فى وسائل التفكير والتعبير ، وبخاصة فى بيئة العراق ، حيث وقع هذا التأثر المباشر باختلاط العرب بالفرس ، وبالثقافة اليونانية والفكر اليونانى ، بعد نقل الفلسفة والمنطق ، فكان نتيجة ذلك كله شعر طريف أنيق ، جمع إلى ترف الألفاظ والمعانى ورقتهما صور ترف الحياة العباسية المتحضرة ، وتهتكها ومجونها ، ومجالس لهوها وشرابها ، مما لم يعرفه الأولون ، ولا مرَّ بخيالهم ؛ ولهذا كنا نرى شعراء العراق ، وبخاصة

الموالى منهم ، نواة النهضة الشعرية ولبابها ، وبناء أسس الشعر المولد ، ركن هذه النهضة وعمودها .

• • •

هذا هو العصر العباسى الثانى ، بعد أن حكم العباسيون خلال القرن الأول من خلافتهم دولة مترامية الأطراف ، مختلفة الأجناس . بمقتضى أنهم أصحاب حق إلهى . وقد سوَّغ لهم هذا الزعم أن يحكموا حكماً استبدادياً مطلقاً ، أحاطوا فيه أنفسهم بما كان يحيط به الأكاسرة أنفسهم من مظاهر الملك والحجاب ، وساموا الرعية الخسف ، وجاروا عليهم فى فرض الضرائب الباهظة ، فانتقضت عليهم الناس فى ثورات عديدة ، فى أرض فارس القديمة . وعلى الرغم من اتخاذهم وزراء وقوادا من الفرس ، فإنهم كانوا لا يلبثون حتى ينكبوهم ، ويطيحوا بهم ، كما فعلوا بالبرامكة وبنى سهل . وعلى الرغم مما يقال فى أسباب هذه النكبة ، فالذى لامراء فيه أنها كانت نتيجة للحرب الشعوبية غير المعلنة ، بين الفرس والعرب . ولعل أبرز مظاهر هذه الحرب ذلك الصراع الذى نشب بين المأمون والأمين ، وانتهى بالقتال بين الأخوين ، وتأكد فيه انتصار الفرس على العرب ، إلا أن طموح الفرس إلى إعادة ملكهم الساسانى لم يقف عند هذا الحد ، فظلت ثوراتهم تشتعل فى شرقى الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى . وكان آخر هذه الثورات ثورة « بَابَك الخُرَّمِىّ » فى أذربيجان ، والتى ظلت نحو عشرين عاماً ، وكلفت الدولة كثيراً من الأنفس والأموال إلى أن سحقها المعتصم وقواده سحقاً .

وكأنما انتبه المعتصم إلى خطر الفرس ، وطموحهم السياسى ، ففكر فى الاعتماد على الرقيق التركى ، الذى كثر توافده على العراق ، وشهر بالصبر على القتال والرمى ، فاستكثر منه وطلبه من سمرقند ، وفرغانة ، وأُشْرُوسَنَة ، حتى بلغ عدد عسكره منه ثمانية عشر ألفا ، ضاقت بهم بغداد ، فابتنى لهم مدينة سامرَّاء ،

واتخذها عاصمة للخلافة العباسية ، وظلت كذلك إلى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦ هـ .

وكان هذا العمل الذى قام به المعتصم بداية تحول خطير ، فى تاريخ الدولة العباسية بدأ به العصر العباسى الثانى ، الذى سيطر عليه عنصر الترك ، بعد زوال سيطرة الفرس فى العصر الأول ، ولم يعد لهم أدنى نفوذ .

وأصبح السلطان والنفوذ كله بيد الجند الأتراك وقوادِهم . وكان الأتراك بدوًا جُفَاةً ، لا عهد لهم بفنون ولا آداب ، ولا بنظم ولا سياسة ، وقد ظلت سيطرتهم مبسوطة على مقدرات الدولة ، منذ أواخر العصر الأول فى عهد المعتصم ، وطوال فترة العصر الثانى . ولم ينجح المتوكل ، آخر الخلفاء العظام فى التخلص منهم ، ونجحوا هم فى التخلص منه ، وقتلوه وولوا مكانه المنتصر . وكان هذا إيذاناً بتسلطهم المطلق على الخلافة ، فمضوا يُوَلُّون ويعزلون ويقتلون فى الخلفاء ، ويَسْمُلُون عيونهم . ووصل الأمر بالخلافة حدًّا من التدهور حَدَّا ببعض الشعراء أن يقول فى المُستعين :ـــ

خليفـــة فى قفصٍ بين وصيفٍ وَبغـا
يقول ما قالا له كما يقـول التبَّغـا

وترتب على ذلك أن فسد الحكم ، وتحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، فى حين يتجرع الشعب صنوف البؤس والشقاء .

وخلال ذلك نشبت ثورة الزَّنْج بالبصرة لمدة أربعة عشر عاماً ، وكذلك ظلت ثورة القرامطة سنوات طويلة ، وعلى الرغم من القضاء عليها فى الشام والعراق ؛ فقد نجت شعبة منها فى البحرين ، ظلت تناوىء الخلافة إلى نهاية هذا العصر . وكانت الغزوات الرومية الصيفية مستمرة ، وثورات العلويين فى الكوفة وطبرسْتَان ، وانتفاضات الصَّفَارِيِّين فى سجستان وكِرْمان وفارس لاتهدأ حتى آخر العصر ، عندما تغلَّب كثير من الحكام والولاة على أقاليمهم ، وانتزعوها من كيان الدولة

المركزية . وكان ذلك إيذاناً بانتهاء هذا العصر ، وانتهاء نفوذ الترك ، والعودة إلى تسلُّط الفرس البُوَيْهِيِّين ، الذين صار لهم السلطان على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، وذلك فى عَهد الخليفة المستكفى بالله .

وتحت هذه الظروف السياسية الصعبة ، أصبح المجتمع العباسى فى هذا العصر ثلاث طبقات :

الطبقة العليا وكانت تنعم بكل أسباب النعيم ، وهى طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار .

والطبقة الوسطى وكانت معيشتها تتراوح بين الترف والشظف ، وهى طبقة صغار الموظفين ، ومتوسطى التجار والصناع ورجال الجيش .

أما **عامة الشعب** ، **وطبقته العامة** من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق ، فكانت تعانى من البؤس والضنك والإعسار .

وكان التفاوت البيِّن بين الطبقة العليا والدنيا ، مما يملأ النفس بالمرارة والحقد . فإسراف الطبقة العليا يقوم على ابتزاز الطبقة الدنيا وحرمانها ، وكانت الطبقة العليا تنفق بِبَذَخٍ على أسباب لهوها ومتعتها ، من الخمر والغناء والرقيق . وكانت دوره فى الكَرْخ تكتظ بالقيان . وظلَّت نيران الشعوبية والزندقة مشتعلة طوال العصر ، وكذلك ظل الزهد والتصوف يقابل المجون واللهو ، وأتيح له أعلام أرسَوْا قواعده وأصوله .

وعلى الرغم من أن هذا العصر العباسى الثانى ، قد شهد نهاية تسلط الفكر الاعتزالى ، الذى ساد خلال العصر الأول ، ووَضْع المتوكل نهاية لهذا التسلط ، بإعلاء أهل السنة على المعتزلة ، ونبذ القول بِخَلْق القرآن ، فإن نشاط الحياة العقلية لم يهدأ ، وظلت المساجد تقوم بدورها الثقافى كأنها جامعات حرة ، يَفِدُ إليها الطلاب من كل صوب ؛ لينهلوا ماشاءوا من علوم اللغة والكلام والفقه والأدب ، وانتشرت حولها دكاكين الورَّاقين حافلة بكتب العلماء ، وتراجم الفلاسفة من اليونان والفرس والهند . كما تأسست خزائن الكتب العامَّة – كخزانة الحكمة – والخاصة فى

قصور الأفراد . وتَرتَّب على إشاعة هذه الثقافات وهضمها ظهور فلاسفة من العرب المسلمين ، كالكِنْدِى فى أوائل هذا العصر ، والفارابى فى آخره .

وازدهرت العلوم العربية من اللغة والنحو ، وشرحت النصوص ، ووُضِعَت المعاجم ، وبرزت المدارس النحوية بخلافاتها ، وظهرت الاجتهادات البلاغية فى بيئات اللغويين والمترجمين والمتفلسفة والمعتزلة . ويخطو النقد نحو التقنين خطوات واسعة ، فيظهر كتاب ابن المعتز « **البديع** » ، ويضع ابن سلام الجُمَحى أول كتاب يصلنا فى النقد وتاريخ الأدب ، يجعل الشعراء فيه طبقات ، ويشارك الجاحظ فى تقنين النقد مشاركة قوية فى « **البيان والتبيين** » ، يتأثره ابن قتيبة ، ويُصْدر قدامة بن جعفر « **نقد الشعر** » .

وتنشط الكتابة التاريخية فى السيرة النبوية ، وتاريخ الأمم والدول والمدن والرجال ، وينهض علم القراءات ، وعلم التفسير ، وعلم الحديث ، وتجرد كتبه . وتزدهر الدراسات الفقهية : فيظهر المذهب الأشعرى ، الذى يقع فى منزلة بين المنزلتين من المذهب الاعتزالى ومذهب أهل السنة ؛ لينتشر فى العالم الإسلامى انتشاراً واسعاً .

وقد انتهى كل هذا الفيض المزدهر من الرقى العقلى والثقافى إلى الشعراء ؛ مما جعل عقولهم ترتقى إلى آفاق بعيدة من التفكير العميق ، والتقسيم الدقيق ، والإغراق فى الخَيال والوهم ، والتوليد فى المعانى ، حتى لا يستطيع البحترى المحافظ على أصول الصياغة الموروثة ، أن يُفلت من التأثر بهذا كله ، على الرغم من هجومه على أصحاب الفكر الفلسفى والمنطقى ، من أمثال ابن الرومى ، الذى كان حظه من هذه الثقافات وافراً ، فامتلأ شعره بالأخيلة المبتكرة ، وظهرت عنده القدرة العقلية على التوليد والتشقيق ، واستخدام العلل والأقيسة . ونفذ إلى لون ساخر من ألوان الهجاء أشبه بالتصوير الكاريكاتورى ، وحطم وهْم المعانى الشريفة فى الشعر ، فنزل به إلى تصوير الحياة اليومية للعامة ، وطالت قصائده لهذا طولاً مفرطاً . كما نفذ إلى لون جديد من ألوان الرثاء ، وهو رثاء المدن ، كما فعل فى رثاء البصرة عندما أحرقها الزَّنْج .

وقد نفذ ابن العلّاف إلى لون من ألوان الرمز ، عندما رثى هِرًّا فى مرثية رائعة ، رأى بعض الدارسين أنه عَنَى به ابن المعتز ! . ورثى البحترى إيوان كسرى رثاء مؤثراً يأخذ بالألباب .

وقد ظل الشعراء يبالغون فى مديح الخلفاء ، وإسباغ الصفات القدْسية عليهم ، فسجلوا بطولاتهم الحربية ، واحتفظوا فيها أحياناً بالمقدمات التقليدية ، من وصف الأطلال ، وإن نفذوا من خلال ذلك إلى خواطر بديعة ، واستطردوا إلى وصف الصحراء ، واتسعوا فى وصف الربيع والطبيعة الحضرية ، والأعياد وملاهيها . وصوَّروا عتابها واعتذارهم فى رقة أهل الحضر ودماثتهم ، واستمر الغزل بلونيه : العفيف والماجن ، وطفحت خمرياتهم باللهو والمتاع الآثم . ونشط الزهد وشكوى الزمن ، وازدهر الشعر التعليمى على نحو مايلاحَظ عند على بن الجَهْم وابن المعتز فى نَظمهما التاريخ . وعند ابن دُرَيْد فى نَظْمه المعارف اللغوية . كما أكثروا من وصف الصيد والوحش والكلاب والأطعمة ، وأكثروا كذلك من التهانى والتراسل بالأشعار مع الهدايا .

وقد بلغ الشعر فى هذا العصر درجة من التفوق لم تُتَحْ له فى أى عصر آخر ، بفضل ماكان يقدمه اللغويون من زاد للشعر فى شكل دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه ، والوقوف على كثير من أسراراها ، وماكان يدعمهم به النقاد والبلاغيون من ملاحظات على الخصائص الجمالية للبيان العربى ، وأخذت تنشأ بفضل هذا كله عربيةٌ مولدةٌ رقيقةٌ ، لم يَشُبها ضيم ، ولم تلحقها هُجْنة .

ملاحق

فِينـــا النَّبىُّ

لعبد الله بن رواحـــة

١

وصفه ابن سلام بأنه كان عظيم القدر فى قومه فى الجاهلية ، كما كان عظيم القدر فى الإسلام ، عظيم القدر عند الرسول ﷺ . وقد ترجم له ضمن طبقة (شعراء القرى العربية) مع شعراء المدينة . وتشيع فى شعر عبد الله بن رواحة – كما تشيع فى شعر معاصره كعب بن مالك – المعانى الإسلامية ؛ ومرد ذلك إلى شدة تأثرهما بالإسلام . وهما فى هذا يختلفان عن معاصرهما حسان بن ثابت ، الذى كان أسنَّ منهما ، وأكثر خبرة وتأثراً بالحياة الجاهلية . وقد شارك هؤلاء الثلاثة فى الدفاع عن الإسلام والرسول ، وهجاء المشركين فى مكة . وبينما تشيع فى شعر حسان الأفكار والقيم الجاهلية على النمط القديم ، تشيع فى هجاء عبد الله وكعب المعانى الإسلامية ، كتعيير المشركين بالكفر ، والتباهى بالدخول فى الإسلام ، والدفاع عن رسوله ، وبذل النفس فى سبيل الدين الجديد . وهذا هو الإطار العام الذى يدور فيه شعر عبد الله بن رواحة ، منذ دخوله فى دين الله ، إلى أن انتقل إلى جوار ربه شهيداً فى غزوة مؤتة ، سنة ثمان للهجرة . مع ملاحظة أن مابقى من هذا الشعر لايعدو أن يكون مقطوعات قصيرة ، من بينها عدد غير قليل من وزن الرجز[١]. وأما عن هذا النص فقد جاء فى طبقات ابن سلام خبر عن جلوس الشاعر بين يدى الرسول ، وأن الرسول سأله : كيف تقول الشعر إذا قلته ؟ .. وأنه قال له : عليك بالمشركين . ويقول الخبر – على لسان الشاعر نفسه – فلم أكن أعددت شيئاً ، فلما قلت :

فخبرونى أثمـان العبـاء[٢] متـى كنتم بطاريق[٣] ، أو دانت لكم مُضَر

---

(١) **طبقات فحول الشعراء** لابن سلام الجمحى ٢٢٥/١ ، ٢٢٦ . الزينة ٥٤ ، ٥٦

(٢) لقب كان يطلق على قريش ، يعيَّرون به . ومعناه : تفاهة القيمة

(٣) **البطريق** هو القائد من قواد الروم . يقصد به هنا : الرؤساء والسادة

قال : فكأنى عرفت فى وجه رسول الله ﷺ الكراهة إذ جعلت قومه « أثمان العباء » فقلت :ـــ

نجالدُ الناسَ عن عُرْضٍ[1] ونأسِرُهم ... فينا النبىٌّ ، وفينا تُنْزَلُ السُّور
وقد علمتمْ بأنَّا ليس غالبَنَا ... حىٌّ من الناس ، إن عزُّوا وإن كثُروا
ياهاشمَ الخير إن الله فضَّلكم ... على البريةِ فضلاً ماله غِيَـــرُ[2]
إنى تفرَّسْت[3] فيك الخيرَ أعرفُه ... فِرَاسَةً ، خالفَتْهُمْ فى الذى نظروا
ولو سألتَ أو استنصرتَ بعضَهُمُ ... فى جُلِّ أمرِكَ ، ماآوَوْا وما نصروا
فثبَّتَ اللهُ ماآتاكَ من حَسَنٍ ... تثبيتَ موسى ، ونصراً كالذى نُصِرُوا

قال : فأقبل علىَّ مبتسما ، ثم قال : وإياك فثبَّت الله

---

(١) **عُرْض** . يجالدون عن عرض : أى يدافعون عن شِقٍّ وناحية ، ولايبالون من يدافعونهم .
(٢) **غِيَر** : التغيير والتغير.
(٣) **تفرَّست فيك الخير** : تعرفته بالظن الصائب .

ياليت كل اثنين

لجميل بن معمر (- ٨٢ هـ)

٢

جميل بن عبد الله بن معمر العذرى القُضَاعى . أحد مشاهير الشعراء العشاق . ويقف جميل على طرف نقيض مع عمر بن أبى ربيعة ، فجميل شاعر بدوى عفيف ، أما عمر فكان حضرياً صريحاً فى غزله .

وشأن مجموعة العشاق المعذبين ، تمضى قصة جميل مع محبوبته بثينة ، ابتداء من الوقوع فى هواها صغيراً ، ثم تصريحه بحبه ، فحرمانه من الزواج بها ، فموته شهيد هذا الحب . وحول هذه الرحلة تدور غالبية شعره ، الذى يمتاز بقوة العاطفة ، وقوة البناء فى وقت واحد ، مع الخلو - إلى حد كبير - من عناصر الصنعة ، بالرغم من انتمائه - بحكم روايته لهُدَبَةَ بن خشرم العذرى - إلى مدرسة الصنعة بزعامة الشاعر الجاهلى زهير . وقد جُمع شعر جميل ، وطبع أكثر من مرة . والنص من ديوانه ، بتحقيق الدكتور حسين نصار ص ٢٠٠ - ٢٠١ . يقول :

أرى كلَّ معشوقين غيرى وغيَرها
يَلَـذَّان فى الدنيـا ويغْتَبِطـان
وأمشى وتمشى فى البلاد كأننـا
أسـيران للأعـداءِ مُرْتَهَنَـان (١)
أصلىِّ ، فأبكى فى الصلاة لذكرها
لىَ الويلُ مما يكتبُ المَلَكـان
ضَمِـنْتُ لها ألا أهيـمَ بغيرهـا (٢)
وقد وَثِقَتْ منى بغير ضمـان

---

(١) مرتهنان من الرهن ، وهو ماوضع عندك لينوب مناب مأأخذ منك
(٢) أهيم بغيرها : أحب غيرها .

ألا يا عبادَ الله قوُموا لتسمعُوا
خُصومةَ معشوقين يختصِمان
وفى كل عام يستجدَّان مرةً
عتاباً ، وهجراً ثم يصطلِحان
يعيشان فى الدنيا غريبيْن أينما
أقاما ، وفى الأعوامِ يلتقيان
وما صادياتٌ[1] حُمْنَ يوما وليلة
على الماء يَحْشَيْن العِصىَّ حَوَانى
لواغبُ[2] لايصدُرْن عنه لِوِجْهَةٍ
ولا هُنَّ من بَرْدِ الحياضِ دوانى
يرِيْنَ حَبَابَ الماءِ والموتُ دونَه
فهنَّ لأصواتِ السقاةِ رَوَانى[3]
بأكثرَ منىٍّ غُلَّةً[4] وصبابةً[5]
إليكِ ، ولكن العدوَّ عَدَانى[6]

---

(١) **صاديات** : عطاش ، ويقصد طيوراً عطاشا
(٢) **لواغب** : شديدة الإعياء . من لَغِبَ لغْباً ولغوبا ، **وألغبه السير** : أتعبه
(٣) **روانى** : جمع رانية .. بمعنى : مصغية ومنتبهة لأصوات السقاة . من الرناء وهو الصوت والطرب . **ورنوت إلى حديثه** : أصغيت إليه .
(٤) **الغلة** : شدة العطش ، أو حرارة الجوف .
(٥) **الصبابة** : الشوق ، ورقة الهوى .
(٦) **عدانى** : منعنى

قالت لجارتها

لعمر بن أبى ربيعة (- ٩٢ هـ)

٣

عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة ، ينتمى إلى بنى مخزوم ، وهم بطن من قريش . توفى والده وهو صغير ، فنشأ نشأة مدللة فى حجر أم يمانية ، وشبَّ ليناً رقيقاً ، بحكم قربه من مجتمع النساء ، وهو ما بدا أثره فى شعره ، ونعنى القدرة على وصف عاطفة المرأة ، وما يعتمل فى نفسها تجاه الرجل . أما منحاه الخاص بجعل المرأة هى التى تتهافت عليه ، وتسعى لاصطياده ، فيمكن تعليله بتلك العوامل نفسها التى يُعزى إليها ، وإلى طبيعة عصره وبيئته ، قَصْرُ شعره على الغزل ، دون الخوض فى أى غرض آخر . أما ميله إلى الأوزان الخفيفة ، وعزوفه فى أحيان كثيرة عن الأوزان الطويلة ؛ فإن مردَّه إلى رغبة عمر فى أن يجعل من شعره مادة للغناء الذى شاع وقتها فى مدن الحجاز . وقد طبع ديوانه مراراً . وهذا النص من الطبعة بتحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد . ص ٣٥٧ من الديوان . يقول :ـــ

يا صاحبىَّ قِفَا نستخبر الطَّلَلا(١)
عن حال من حَلَّهُ بالأمس مافَعَلا
فقال لى الرَّبْعُ لمَّا أنْ وقفتُ به
إن الخليطَ(٢) أجدَّ البينَ(٣) فاحْتملا
وخادَعَتْك النَّوى حتى رأيْتَهُمُ
فى الفجر تَحْتَثُّ حادى عِيسِهِمْ(٤) زَجِلا(٥)

---

(١) **الطلل** : كل ماتبقى من آثار الدار ، بعد رحيل سكانها .
(٢) **الخليط** : هو الشريك . ومقصود به هنا : القوم الذين رحلوا عن الدار
(٣) **البين** : الفراق والقطيعة (٤) **عيسهم** : العيس هى الإبل القوية مفردها عيساء (٥) **زَجِل** : رافع صوته . من الزجل وهو اللعب والجلبة والتطريب ، ورفع الصوت .

لما وقفْنا نُحَيِّيهم ، وقد صَرَحَتْ
هواتفُ البيْن ، واستولت بهم أُصُلَا

قامت تَراءَى لحْين[1] ساقُهُ قدرٌ
وقد نرى أنها لن تسبقَ الأجَلا

بفاحمٍ ، مُكْرَعٍ[2] ، سودٍ غدائِرُهُ
تَشْنى على المتنِ منه وارِداً جَثِلَا[3]

ومُقْلَتَىْ نعجةٍ أَدْماءَ[4] ، أسلمَها
أحْوَى المدامِع ، طاوى الكَشْحِ[5] ، قد خذلا

ونَيِّر النَّبْت ، عذبٍ ، باردٍ ، خَصِرٍ[6]
كالأُقْحُوان[7] عِذابٍ طعمُه رَتِلَا[8]

كأن إسفِنْطَةً[9] شِيبَتْ بِذِى شَبَمٍ
من صوْب أزرقَ ، هبت ريحُه شَمَلَا

والعنبرَ الأكلفَ[10] المسحوقَ خالَطَه
والزنجبيلَ ، وراحَ الشامِ والعَسَلَا

(١) الحين : الهلاك والمحنة .
(٢) مكرع : يدور معناها هنا حول نضارة اللون ونقاء المغرس . فالمكرع من النخل هو ماغرس فى الماء . وأكرع القوم صبت عليهم السماء ، حتى يسقوا إبلهم من ماء السماء .
(٣) الجثل : من الشجر والشعر الكثير الملتف ، والكثيف المسودُّ الملتف من كل شيء .
(٤) البقرة الوحشية أو الظبية . والأدماء البيضاء .
(٥) ضامر الخصر .
(٦) البارد .
(٧) زهر أبيض دقيق الأوراق تشبه به الأسنان فى دقتها وبياضها .
(٨) الأبيض الأسنان .
(٩) المطيب من عصير العنب ، أو الجيد من الخمر
(١٠) من الكلفة : وهو لون بين السواد والحمرة .

تَشْفى الضجيعَ به وَهْناً عوارضُها [1]
إذا تغوَّر هذا النجمَ واعتدلا
قالت على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها :
ماتأمرين ، فإن القلبَ قد شُغِلا ؟
فجاوبتها حَصَانٌ ، غيرُ فاحشةٍ
برجْع قولٍ ، وأمرٍ لم يكن خَطِلا
أَقْنَى حَيَاءَكِ فى سترٍ وفى كَرَمٍ
فَلَسْتِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رَجُلا
لا تظهرى حبَّه حتى أراجِعَه
إنى سأكْفيكَه - إن لم أمت عَجَلاَ
صدَّتْ بِعَاداً ، وقالتْ للتى معها :
بالله لُوميه فى بعض الذى فعلا
وحدِّثيه بما حُدِّثْتِ ، واستمعى
ماذاَ يقول . ولا تَعْيَىْ به جَدَلا
وعرِّفيه به كالهَزْل واحتفظى
فى غير مَعْتَبَةٍ أن تُغْضِبِي الرجلا
فإن عهدى به - واللهُ يحفظه -
وإن أتى الذنبَ ، ممَّن يكرهُ العَذَلا
لو عندنا اغْتيبَ ، أو نِيلتْ نَقِيصَتُه
ما آب مغتابُه من عندنا جَذِلا [2]

---

(١) العوارض : الأسنان فى مقدم الفم .
(٢) الجَذِل : الفَرِح السعيد .

قلت اسمعى ، فلقد أبلغتِ فى لطفِ
وليس يخفى على ذى اللُّبِّ من هَزَلا

هذا أرادتْ به بُخْلاً لَتَعْذِرَهـــا
وقد أرى أنها لن تَعْدَمَ العِلـلا

ماسُمِّـى القـلبُ إلا من تَقَلُّبِـــه
ولا الفؤادُ فؤاداً ، غير أن عَقَلا

أما الحديثُ الذى قالت أُتِيتَ به
فما عبـأتُ به إذ جاءنى حِوَلا

ما إن أطعتُ بها بالغيبِ قد عَلِمَتْ
مقالة الكاشح(١) الـواشى إذا مَحَـلَا(٢)

إنى لأُرْجِعُـــه فيها بسَخْطتِـــه
وقـد يرى أنـه قد غرَّنى زَلَـلا

---

(١) **الكاشح** : هو الذى يضمر العداوة .
(٢) **مَحَلا** : كذب واختلق ، من المحْل وهو المكر والكيد .

٤

من شعر النقائض

لا نبيع زماننا بزمان

من شعر جرير للفرزدق والأخطل ★

لمن الديارُ بِبُرْقَةِ الرَّوْحَانِ
إذ لا نبيعُ زمانَنا بزمانِ
إن زرتُ أهلَكِ لم يُبَالُوا حَاجَتى
وإذَا هجرتُكِ شَفَّنى هِجْرَانى
راجعتُ بعد سُلُوِّهِنَّ صبابةً
وعرفتُ رسمَ منازلٍ أبكانى
أصبحَنْ بعد نعيمِ عيشٍ مونِقٍ
قفْراً ، وبعد نواعمٍ أحْدَان
قد رابَنى نزعٌ وشيبٌ شاملٌ
بعد الشبابِ وعصرِهِ الفيْنان
نزل المشيبُ على الشباب فراعنى
وعرفتُ مَنْزِلَهُ على أحْدانى
بكرَتْ حمامةُ أيْكَةٍ محزونةٌ
تدعو الهديلَ فهيَّجت أحزانى

★ (النقائض ٢/٨٨٨ ط. أوربا)

يامستجيرَ مُجَـاشِعٍ[1] تخشى الـرَّدى
لا تأمَنَـنَّ مُجَاشِعـاً بأمَـان

وَطِئت سنابكُ خيلِ قيسٍ منكمُ
قتلَـى مُصَرَّعـةً على الأغْطَـان

أنسيتَ - وَيْلَ أبيك - غَدْرَ مُجَاشع
ومَجَـرَّ جِعْثِـنَ لَيْلَـةَ السِّيـدان[2]

ونسيتَ أُعْيَـن والرَّبَـابَ وجَارَكَـم
ونَـوارَ حيث يُصَلْصِلُ الحجـلانِ

لما لقيتَ فوارسـاً من عامـر
سلُّـوا سيوفَهُـمُ من الأجفـان

لاقَوْا فوارسَ يطعنُـون ظُهُورَهـم
نشْط البُـزَاة عواقبَ الحِزْبَـان[3]

لايخفِيـنَّ علـيك أن مجاشعـا
من نسـلِ كل ضِفِنَّـةٍ مِبْطَـانِ[4]

إنـا لنعـرفُ ماأبـوك بحاجبٍ
فالحقْ بأصلِك من لَقٍ دَهْمَـان[5]

ياذا العبـاءة[6] إن بِشراً قد قضى
ألا تجوزَ حكومـةُ النشـوان

---

(١) **مجاشع** : أحد أجداد الفرزدق . كان يفتخر به ، فى حين جعل منه جرير محوراً لكثير من أهاجيه للفرزدق ، يُعَيِّرُهُمْ هنا بغدرهم بالزبير ، فقد خذلوه حتى قتل .

(٢) فى هذا البيت والذى يليه يشير جرير إلى مجموعة من الوقائع ، بعضها وليد مبالغاته فى تضخيم عيوب الفرزدق وأسرته

(٣) **الحزبان** : جمع حَزَب : ذكر الحبارى .

(٤) **الضفنَة** : القصيرة الحمقاء مع ضخامة الخلق .

(٥) **لق** : مطرح مبعد . ودهمان مبالغة من الدهمة وهى السواد .

(٦) يقصد الأخطل .

فدعوا الحكومة لستمُ من أهلها
إن الحكومة فى بنى شَيْبان
قوم لقيتَ قنائهمُ بِسنانها
ولَقُوا قنائك غيرَ ذات سِنان
مضرٌ أحقُّ بأن يكونوا مَقْنعاً
أوْ أن يَفُوا بحقيقةِ الجيران
قتلوا كُلَيْبَكمُ بلقحةِ جارِهم (١)
يا خُزْرَ تغلبَ لستمُ بهِجَان
كذبَ الأُخَيْطلُ إن قومى فيهمُ
تاجُ الملوك ، ورايةُ النعمان
منا عُتيبةُ والمحلُّ وقعْنبٌ
والحَنْتَفَانِ ، ومنهم الرِّدْفَان
إنى ليُعْرَفُ فى السُّرادق منزلى
عندالملوكِ وعند كلِّ رِهَان
إنا لنستلبُ الجبابر تاجَهم
قابوسُ يعلمُ ذاك والجونانِ
جاريتَ مطَّلعَ الجِرَاءِ بِنَابِهِ
روقٌ شبيبتُه وعمرُك فان
قل للمعرِّض والمشوِّر نفسَه
من شاء قاس عِنَانَه بعِنَانى

---

(١) يشير فى الشطر إلى واقعة قتل جساس بن مرة البكرى لكليب بن ربيعة التغلبى ، الذى قتل ناقة تملكها امرأة كانت فى جوار بكر .

عمْداً حزَزْت أنوفَ[1] تغلب مثلما
حزَّ المواسمُ آنُفَ الأَقْيان

ولقد وسَمْتُ مجاشعاً ولتغلبٍ
عندى محاضرةٌ وطولُ هوان

إن القصائدَ يا أُخَيْطِلُ فاعترف
قَصَدَتْ إليك مُجَرَّةَ الأَرْسَان

وعلِقْتَ فى قَرَنِ الثلاثةِ رابعاً
مثل البِكَارِ لُزِزْنَ فى الأَقْرَان

---

(١) كناية عن إذلالهم بشعره

كأنَّ البدرَ صورتُها

لبشار بن بُرد (ـــ ١٦٧ هـ)

٥

أبو معاذ ، بشار بن برد . ولد ضريراً بالبصرة لأب من الأسرى الفرس ، الذين أسرهم المهلب بن أبى صفرة والى خراسان . وهو من مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية . اشتهر فى تاريخ الشعر العربى باعتباره واحداً من رواد التجديد الذين لم ينفصلوا عن القديم ، ويمكن تفسير هذا الدور على أساس ثقافته ذات الجوانب المتعددة ، التى شملت الشعر العربى القديم ، واللغة الفصيحة المستمدة من مصادرها الأصلية ، إلى جانب ثقافته الكلامية التى جاءت من اختلافه إلى مجالس المتكلمين بالبصرة . وقد انعكس هذا التنوع على شعره ، فبينما نقابل التمسك بالتقاليد العريقة للقصيدة ، مع رصانة العبارة ، ومتانة البناء ، فى أغراض كالمديح والفخر ، نجد التَسَهُّل والرقة فى فنون كالغزل واللهو والمجون .

وقد أورد كتاب الأغانى ٣ / ١٦٥ هذه الحادثة عن القصيدة التى نحن بصَدَدها . قال : حضر بشار مجلس جعفر بن سليمان بن على ، وكانت تغنيه جارية بارعة فى الغناء ، فشرب جعفر حتى سكر ونام ، فطلبت الجارية من بشار نظم قصيدة فى يومهم هذا ، ولا يذكر اسمها ، ولا اسم سيدها ، فانصرف وبعث إليها بهذه الأبيات ، مضمنا الأغنيات التى تغنت بها الجارية يقول :ـــ

وذاتِ دلٍّ كأن البدرَ صورتُها
باتت تغنىِّ عميدَ القلب[1] سكرانا

---

(١) عميد القلب : مريضه

« إن العيونَ التى فى طرفها حَوَرٌ
قتلْننا ، ثم لم يُحْيين قتْلانـــا »
فقلتُ : أحسنتِ ياسؤْلى ويا أملى
فأسمِعينـــى جزاكِ الله إحسانـــا :
« ياحبَّذا جبلُ الريان[1] من جبـــل
وحبذا ساكنُ الريان مَنْ كانا »
قالت : فهلا ــ فدتك النفس – أحسنُ من
هذا لمن كان صبَّ القلب حيرانا :
« ياقومُ أذْنى لبعض الحى عاشقةٌ
والأذْنُ تعْشَق قبلَ العين أحياناً »
فقلت : أحسنتِ ، أنتِ الشمسُ طالعةً
أضرمْت فى القلب والأحشاء نيرانا
فأسمِعينىَ صوتـــا مطربـــا هزجـــاً[2]
يزيدُ صبًّا محبًّا فيك أشجانا :
« ياليتنـــى كنت تفاحـــا مفلَّجَـــةً[3]
أو كنت من قُضُب الريحان ريحانا
حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها
ونحن فى خَلْوة مُثِّلْتُ إنسانـاً »
فحرَّكتْ عودَها ، ثم انثنت طربـا
تشدو به ، ثم لا تُخفيه كتمانا :

---

(١) **الريان** : جبل فى منازل بنى عامر . وهذا البيت ، والبيت (إن العيون) مختلف فى نسبتهما لبشار
(٢) **هزج** : ضرب من الأغانى فيه ترنم
(٣) **مفلجة** : وهو أدعى لانتشار رائحتها

« أصبحت أطوعَ خلق الله كلِّهمُ
لأكثر الخلق لى فى الحب عِصيانا »
فقلت : أطربتِنا ، يا زينَ مجلسنا
فهات ، إنَّك بالإحسان أولانا :
« لو كنتُ أعلم أن الحبَّ يقتلنى
أعددتُ لى قبل أن ألقاك أكفاناً »
فغنت الشَّرب[1] صوتا مونِقا رَمَلاً[2]
يُذكى السرور ، ويُكى العين ألوانا :
« لايقتلُ الله من دامت مودَّتهُ
والله يقتلُ أهلَ الغدر أحيانا »

---

(١) الشرب : الشاربون
(٢) الرمل : ضرب من الغناء ، والمونق : المعجب

تراءى الهوى بالشوق

لمسلم بن الوليد (١٤٠ - ٢٠٨ هـ)

٦

نشأ فى الكوفة لأب من الأنصار أو من مواليهم ، ومن هنا اكتسب لقبه (الأنصارى) ، أما لقبه (صريع الغوانى) فيقال : إن الرشيد هو الذى أطلقه عليه عندما سمع بيته :

هل العيش إلا أن تروح مع الصِّبا
وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

وقد تعلق مسلم بشعر الفحول من القدماء ، كالنابغة وزهير والأعشى والأخطل وجرير وبشار . واختلف إلى مسجد الكوفة الكبير ؛ ليحصِّل النحو والصرف واللغة والبيان على أئمة عصره ، فلما أنشد الشعر اشتهر أمره ، وطار ذكره ، فاتصل بالبرامكة فى بغداد ، ثم وصل بعد ذلك إلى بلاط الرشيد .

ويشبه النقاد مسلماً بزهير بن أبى سلمى ، ووجه الشبه - فيما نتصور - هو مذهب كل من الشاعرين فى الإنشاء ، من التأنى وتنقيح العبارة وتهذيبها ، والإبعاد فى الخيال ، ومن هنا سلك كل من الشاعرين فى سلسلة واحدة هى مدرسة الصنعة فى الشعر العربى ، المدرسة التى تضرب بجذورها إلى زهير وأستاذه أوس بن حجر ، والتى تخرج فيها من المحدثين العتابى ، ومسلم بن الوليد ، وتلميذه أبو تمام وغيرهم . والنص التالى من ديوان مسلم ، تحقيق الدكتور سامى الدهان يقول مسلم :ـــ

تحمَّلتُ هجرَ الشَّادنِ(١) المتدلِّلِ(٢)
وعاصَيْت فى حبِّ الغَرَايَةِ(٣) عُذَّلى

---

(١) **الشادن** : ولد الظبية الصغير الذى قوى على المشى
(٢) **المتدلل** : اللعوب
(٣) **الغراية** : الحسن ، أى عصيت من لامنى فى اتباع الهوى

وما أبقت الأيامُ منى ولا الصبّا
سوى كبدٍ حرّى[1]، وقلبٍ مقتّلِ[2]
ويومٍ من اللذاتِ خالست عيشَه
رقيباً على اللذات غيرَ مغفّل
فكنتُ نديمَ الكأسِ، حتى إذا انقضتْ
تعوّضْت عنها ريقَ حوراء[3] عيْطَل[4]
نهانِىَ عنها حبُّها أن أسوءَها
بلمسٍ، فلم أفتِك[5]، ولم أتبتّل[6]
أخذتُ لطرفِ العين منها نصيبَه
وأخليتُ من كَفىٍّ مكانَ المُخَلْخَل[7]
سقتنى بعينيها الهوى وسقيتُها
فدبَّ[8] دبيبَ الراحِ فى كل مِفْصَلِ
وإن شئتُ أن ألتذَّ نازلتُ جيدَها
فعانقْتُ دونِ الجيد نظمَ القَرَنْفُل
أنازعُها سرَّ الحديث، وتارةً
رُضَاباً[9] لذيذَ الطعم، عذبَ المقبَّل

---

(١) **حرى** : مستحرة ، تشعر بالألم
(٢) **قلب مقتل** : أى معذب من شدة الحب .
(٣) **الحوراء** : شديدة بياض العين مع شدة السواد .
(٤) **العيطل** : الخالية من الحلى .
(٥) **لم أفتك** : لم أهجم عليها .
(٦) **لم أتبتل** : لم أتجنب .
(٧) **المخلخل** : مكان الخلخال .
(٨) **دبَّ** : سرى فيه وتخلله
(٩) **الرضاب** : هو الريق . يريد أن يحدثها تارة ، ويقبلها تارة .

وما العيشُ إلا أن أبيتَ مُوَسَّداً
صريعَ مُدَامٍ .. كفَّ أحورَ أكْحَلِ
وممكورةٍ ، رَوْدِ الشباب ، كأنها
قضيبٌ ، على دِعْصٍ من الرَّمْلِ أهْيَل
خلوتُ بها والليلُ يقظانُ قائمٌ
على قدمٍ كالراهبِ المتبتِّل

فلما استمرَّت من دُجَى الليل دولةٌ
وكاد عمودُ[1] الصُّبْح بالصُّبح ينْجَلى
تراءى الهوى بالشوقِ فاستحدثَ البُكا
وقال للذَّات اللقاءِ ترحَّلى
فلم تَرَ إلا عَبْرَةً بعد زَفْرَةٍ
مودّعة ، أو نظْرةٍ بتأمُّل

---

(١) عمود الصبح : مطلعه وضوؤه

٧

فما زال يَسْقينا

لأبى نواس (١٣٥ - ١٩٥ هـ)

الحسن بن هانىء ، ولد فى الأهواز بفارس لأب من الموالى وأم فارسية . نشأ بالبصرة ، وتخرج فى الشعر على الشاعر الماجن « والبة بن الحباب » ، ثم تَبَدَّى وخالط العرب الخلَّص ، ففصح لسانه ، وعاد إلى الكوفة وأخذ علوم اللغة عن أئمتها ، ثم توجه إلى بغداد حيث اتصل بالرشيد ، واتصل من بعده بابنه الأمين ، وقد مدحهما جميعاً . ومات قبل أن ينقل المأمون مقر خلافته إلى بغداد .

وأبو نواس شاعر مطبوع ، وشعره مرآة لنفسه ، وبخاصة شعره فى الخمر والمجون والعبث . كما أن فيه نزعة واضحة إلى التجديد ، سواء فى الأفكار أو الصور والأساليب . طبع ديوانه عدة مرات فى فينا ومصر وبيروت يقول فى هذه القصيدة :ـــ

دع الرَّبْـــع[١] واللَّربْـــع فيك نصيبُ
وما إنْ سبْتى[٢] زيـــنبٌ وكَعُـــوبُ
ولكـنْ سبْتى البابِلِّيـــةُ .. إنها
لمثلِـــىَ فى طُول الزمـــان سَلُـــوبُ[٣]

---

(١) **الربع** : المكان والمنزل وهو مَحِلة القوم ومنزلهم ، ويطلق على القوم مجازا

(٢) **سباه** : السِّباء فى الأصل الاستيلاء على الشىء . وهى هنا بمعنى أعجبنى واستحوذ على انتباهى

(٣) **سلوب** : السلب فى الأصل الاستيلاء . يقال : سلبه فؤاده وعقله أى خلبه واستولى عليه

جفا الماءُ عنها فى المِزَاج كأنها
خيالٌ ، لها بين العظامِ دبيبُ [1]
إذا ذاقها مَنْ ذاقها حلَّقت به
فليس له عقلٌ يُعَدُّ ، أديبُ [2]
وليلةِ دجْنٍ [3] قد سريتُ بفتيةٍ
تنازَعَها نحوَ المُدَامِ قُلُوبُ
إلى بيتِ خمَّارٍ ، ودون مَحَلِّه
قصورٌ مُنيفَاتٌ [4] لنا ودُرُوبُ
ففُزِّعَ [5] من إدلاجِنا بعد هجْعَةٍ [6]
وليس سوى ذى الكبرياء رقيبُ
تناوَمَ خوفاً أن تكون سِعَايةٌ [7]
وعاوده بعد الرُّقَاد وجيبُ [8]
ولما دعونا باسمه طار ذُعْرُه
وأيقن أن الرَّحْلَ منه خَصِيبُ [9]
وبادَرَ نحو الباب سعياً مُلَبِّياً
له طربٌ بالزائرين عجيبُ

---

(١) **الدبيب** : السير اللين . ويقصد به هنا تغلغل أثر الخمر فى كيان شاربها .
(٢) **أديب** : هنا بمعنى الحسن الخلق
(٣) **دجن** : الدجن والدجنة بمعنى الظلمة ، والدجن إظلام الغيم والندى . وهذا يوم دجن . وداجنة وهى السحابة .
(٤) **منيفات** : مشرفة ، أى مرتفعة . **أناف** : ارتفع . وأناف عليه : أشرف عليه
(٥) **فزّع** : خاف . من الفزع وهو الخوف
(٦) **هجعة** : من الهجوع ، وهو نوم الليل . وجاء بعد هجعة ، أى بعد نومة من الليل – أى فترة .
(٧) **سعاية** : وشاية . سعى به إلى السلطان : وشى به
(٨) وجيب : هو الرجفان والاضطراب . من وجب القلب وجيبا إذا رجف واضطرب
(٩) **خصيب** : خصْب الرحل : كثرة الخير . يقولون : فلان خصيب الرحل أى كثير خير المنزل

فأطلق عن نابَيْه ، وانكبَّ [1] ساجداً
لنا ، وَهْوَ فيما قد يظنُّ مُصيب
وقال : ادخلوا ، حُيِّيتُمُ من عِصَابَةٍ
فمنزلُكُمْ سهل لدىَّ رحيبُ
وجاء بمصباحٍ له فأناره
وكلُّ الذى يبغى لديه قريبُ
فقلنا : أَرِحْنا ، هات ، إن كنتَ بائعاً
فإن الدُّجَى عن مُلْكه سيغيب
فأبدى لنا صَهْبَاءَ [2] تَمَّ شبابُها
لها مرحٌ فى كأسِها ووُثوب
فلما جلاها للندامى بَدَا لها
نسيمُ عبيرٍ ساطعٌ ولهَيبُ
وجاء بها ، تحدو بها ذاتُ مِزْهَرٍ
يتوق إليها الناظرون ربيبُ
كثيبٌ علاهُ غصن بانٍ إذا مشى
تكاد له صُمُّ [3] الجبالِ تُنِيبُ [4]
وأقبل محمودُ الجَمَالِ مُقَرْطَقٌ [5]
إلى كأسِها ، لاعيبَ فيه ، أريبُ

---

(١) انكب : معناها وضع وجهه على الأرض .
(٢) صهباء : خمر
(٣) صم الجبال : أى الجبال الصلبة المصمتة التى لا تعقل .
(٤) تنيب : أى تخضع لها ، وتتذلل وتتقرب إليها . من أناب إلى الله بمعنى : رجع وتاب .
(٥) مقرطق : أى عليه القرطق ، أو لابس القرطق : وهو قباء (وقد تضم طاؤه) نوع من الثياب .

يشم الندامى الوردَ من وَجَناته
فليس به غيرُ المَلاحَةِ طِيب
فما زال يسقينا بكأسٍ مُجِدَّةٍ
تولى ، وأخرى بعد ذاك تثوب
وغنَّى لنا صوتا بلحنٍ مُرَجَّعٍ
« سرى البرقُ غربيًّا فحنَّ غريب »
فَمَن كان منا عاشقا فاض دمعُه
وعاوَدَه بعد السرور نحيبُ
فَمِن بين مسرورٍ ، وباكٍ من الهوى
وقد لاح من ثوبِ الظلام غُيُوب
وقد غابت الشِّعْرَى العَبُورُ وأقبلت
نجومُ الثريَّا بالصباح تَثُوب

أنا شاكٍ إليك بعض ثقاتى

لابن الرومى (٢٢١ ــ ٢٨٣ هـ)

٨

أبو الحسن على بن العباس بن جُرَيْج ، شاعر مطبوع من شعراء العصر العباسى الثانى ، ولد ببغداد من أب رومى ، وأم فارسية . حصَّل كثيراً من ثقافات عصره ، ومن بينها الفلسفة والمنطق . عُرِف عنه التشاؤم والميل الشديد إلى الشر ، والإسراع إلى الهجاء ؛ مما جعل الناس ينفرون منه ، ويخشون صحبته ، وكان ذلك سبباً فى سوء حاله الذى شكا منه طويلاً فى شعره . وقد أكثر من وصف الطبيعة ، والقول فى الموضوعات الشعبية ، والمناظر المألوفة ، التى انتزع من معطياتها صوره وتشبيهاته . أما قصائده فيغلب على كثير منها الطول الشديد ؛ بسبب ميله إلى الاستطراد ، وسَوْق التفاصيل الدقيقة فى كل مايُطيف به من أفكار ، مما كان سبباً فى الطابع النثرى الذى اكتسبته عبارته .

ولابن الرومى مختارات فى جزأين شرحها الشيخ محمد شريف سليم ، ومختار آخر جمعه كامل كيلانى . وقد عكف الدكتور حسين نصار على محاولة إخراج ديوانه كاملا . يقول من ديوانه ٤٣٤/١ بشرح الشيخ محمد شريف سليم :ــ

أحمدُ اللهَ حمدَ شاكرِ نُعْمَى
قابلٍ شُكْرَ ربِّه غيرَ آبِ
طار قومٌ بخفَّةِ الوزنِ(١) حتى
لحِقُوا خِفَّةً بقابِ(٢) العُقَابِ(٣)

---

(١) **طاروا بخفة الوزن** : يريد ارتفعوا لخفة أحلامهم كأنهم الطير .
(٢) **القاب** : مقدار قليل يدل على قرب المسافة .
(٣) **العُقاب** : طائر جارح .

وَرَسَا الراجحون من جِلَّةِ النـــا
سِ رُسُوَّ الجِبالِ ذاتِ الهضابِ
وَلَمَـــا ذَاكَ لِلَّئَـــامِ بِفَخْـــرٍ
لا ، ولا ذاك للكـــرامِ بِعَـــابِ(١)
هكذا الصخرُ ، راجحُ الوزن راسٍ
وكذا الذَّرُّ ، شائلُ(٢) الوزنِ هابِ(٣)
فليطـــرْ مَعْشَرٌ ويعلـــو فإنى
لا أراهُـــمْ إلا بأسفـــلِ قابِ(٤)
لا أعُـــدُّ العُلُـــوَّ منهم عُلُـــوًّا
بل طُفُـوًّا ، يميـنَ غيـرَ كِذَاب
جيـفٌ أنتنَتْ فأضْحَتْ على الـ
ـلُجَّـــةِ(٥) والـــدُّرُّ تحتها فى حِجَـــاب
وغُثَـــاءٌ عَلَا عُبَابـــاً من اليمْـــ
ـمِ(٦) ، وغاصَ المَرْجَانُ تحت العُبَاب
ورجـــالٌ تغلَّبُـــوا بزمـــانٍ
أنـــا فيـــه وفيهمُ ذو اغتـــراب
غلبـــونى به على كلِّ حظٍّ
غيـرَ حظٍّ يفـوتُ كلَّ اغتصاب

---

(١) **العاب** : العيب والنقيصة
(٢) **شائل الوزن** : خفيف
(٣) **هاب** : منتشر فى الجو ، يعلو فيه كالهباء
(٤) **القاب** : المقدار . ويمكن أن يكون هنا بمعنى الحفرة ، من انقابت الأرض أى حفرت
(٥) **جيف** : جمع جيفة وهى جثة الميت — اللجة : معظم الماء
(٦) **الغثاء** : زبد الماء — **اليم** : البحر . **العباب** : الموج

إننى مؤمنٌ ، وإنى أخو الحقْـ
ـقِ ، عليمٌ بفرعِه والـنِّصَاب (١)
قلتُ : إن تَغْلِبُوا بغالبِ مغْلُو
بٍ ، فحسْبِى بغالبِ الغَلَّابِ (٢)
وَبِخِلٍّ إذا اخْتَلَلْتُ (٣) رَعَانى
بالذى بيننا من الأنْسَاب
كَأَبِى سهلٍ (٤) المَسهِّلِ مَأْتَى (٥)
كلِّ عرْفٍ وفاتحِ الأبْواب
يابن نُوبَخْتٍ المَزُورَ (٦) على البُخْـ
ـتِ (٧) تُغَالِى فى سيرها والعِراب (٨)
أنا شاكٍ إليك بعض ثقاتى
فافهمْ اللحنَ فهو كالإعْراب
لى صديقٌ إذا رأى لى طعاماً
لم يكدْ أن يجودَ لى بالشراب
فإذا مارآهما لى جميعاً
كَفَيَانى لديه لبْسَ الثياب
فمتى مارأى الثلاثةَ عندى
فهى حسْبى لديه من آرَابى (٩)

---

(١) **النصاب** : هنا أصل الحق فى مقابل الفرع .
(٢) **تغلبون** : تعتزون ، وغالب المغلوب : الضعيف الخسيس الانتهازى ، الذى لا يغلب إلا إنسانا مغلوبا . بعكس غالب الغلاب ، وهو القوى الذى يغلب الأقوياء .
(٣) **اختللت** : أصابنى خلل أو ضعف (٤) اسم (٥) **مأتى** : سبيل أو طريق
(٦) **المزور** : الذى يزار (٧) **البخت** : الإبل الخراسانية
(٨) **العراب** : الإبل العربية الأصيلة . ويريد أنه مقصود من الناس المختلفى الأجناس
(٩) **الآراب** : جمع أرَب وهو الغاية والمطمع والحاجة .

لا يرانى أهـــلاً لملك الظَّهَـــارِى [1]
لا ، ولا موضعَ العطايا الرِّغَـــاب [2]
وكأنى فى ظنِّـــه ليس شـــأنى
لَهْـو ذِى نُهْيَـــةٍ [3] ولا مُتَصَابى [4]
فىَّ طبْـعٌ ملائكـــىٌّ لديْـــه
عازفٌ ، صادفٌ [5] عن الإطـــرابِ
أو حمارِيـــة فمقـــدار حظـــى
شبعـــة عنـــده بلا أتعـــاب
إنما حظـــيَ اللِّفَـــاءُ [6] لديـــه
مع مافيـه بـى من الإعجـاب
ليس ينـــفك [7] شاهـــدا لى بفهـــم
وبيـــان ، وحكمـــة ، وصـــواب
ومتى كان فتح باب من اللـ
ـه ، توقعت منه إغـلاق بـاب
كاتب ، حاسب ، فقد عامـل الخلْـ
ـلـة [8] بينـــى وبينـــه بالحســـاب
ليس ينفك من قصاصى [9] إذا أحـ
ـسـن دهر إلىَّ أو من عقابى

---

(١) **الظهارى** : جمع ظِهْرِىّ وهو البعير المُعَدَّ للحاجة .
(٢) **الرغاب** : الوفيرة
(٣) **النهية** : العقـل .
(٤) **المتصابى** : الذى يبدو فى مظهر الشباب .
(٥) **عازف وصادف** : زاهد ، معرض منصرف (٦) **اللفاء** : الخسيس والهين من الأمور .
(٧) **ليس ينفك** : لايزال (٨) **الخلة** : الصداقة
(٩) **القصاص** : الثأر والمعاقبة

كلما أحسن الزمان أبى الإحـ
ـسان ، ياللعجاب[1] كل العجاب
أحمد الله يا أبا سهل السهـ
ـل مرام النوال للطلاب
والفتى المرتجى لفصل القضايا[2]
عند إشكالها ، وفصل الخطاب[3]
لِمْ[4] ، إذا أقبل الزمان بإخصا
بٍ ، تربَّعتُ منك فى إجداب
أترى الدهر ليس يعجب من هيـ
ـجك[5] عتبى إذا نوى إعتابى[6] ؟
وتجافيك حين يعطف والوا
جب أن تستهلَّ مثل السحاب
أفلا إذ رأيت دهرى سقانى
بذنوب[7] ، سقيتنى بذناب
أين منك المنافسات[8] اللواتى
عهد الناس من ذوى الألباب ؟
ماهَنَاتٌ تعرَّضَتْ لك فلَّت[9]
منك شؤبوب[10] سابح وثَّاب ؟

---

(١) **العجاب** : العجب
(٢) **فصل القضايا** : الحكم الفاصل فى المشاكل .
(٣) **فصل الخطاب** : القول القاطع للنزاع (٤) **لِمْ** : لِمَ : لماذا ؟ سكَّن الميم لضرورة الوزن . **والإخصاب** : يريد به الخير وعكسه الإجداب أى الحرمان والمنع .
(٥) **هيجك** : إثارتك (٦) **إعتابى** : إرضائى وإزالة مابنفسى من موجدة
(٧) **الذنوب** : الدلو وجمعها ذناب (٨) **المنافسات** : العطايا
(٩) **فلت** : ثلمت : أى جعلت الحد القاطع غير قاطع (١٠) **شؤبوب** : حد

أيـن عن معـرق من الخيـل طرف(١)
عز إحضـاره اقتحـام العقـاب ؟
أمـن العـدل أن تعـد كثيراً
لِيَ ماتستقـلُّ للأوقـابِ(٢)؟
أتـرانى دون الأُلَى بلغـوا الآ
مال من شرطـة ومـن كتَّـاب ؟
وتِجَـارٍ مثـل البهـائم فازوا
بالمنـى فى النفـوس والأحبـاب
فيهمُ لُكْنَـةُ النبيـط(٣) ولكـن
تحتها جاهليـة الأعـراب
أصبحـوا يلعبـون فى ظل دهـر
ظاهر السـخف مثلهـم ، لعَّـاب
غير مغنين بالسيـوف ولا الأقـ
ـلام فى موطـن غَنَاءَ ذبـاب

---

(١) **الطَّرف والسابح** : الجواد السريع (٢) **الأوقاب** : جمع وقب وهو النذل الدنىء
(٣) **النبيط والأنباط** سكان شمال الشام والعراق العربى ، وكانوا يتكلمون لساناً نبطيا مختلفاً عن العربية .

طارُوا إلى إبليسَ بالخبـر

لابن المعتز (٢٤٩ - ٢٩٦ هـ)

٩

أبو العباس عبد الله بن المعتز . يعرف أحياناً بـ (خليفة اليوم الواحد) إشارة إلى قتله ، بعد توليه الخلافة بيوم واحد . أما فى تاريخ الأدب فيستمد شهرته من كونه ناقداً وشاعراً فى الوقت نفسه .

وفى الميدان الأخير ، اشتهر ابن المعتز برقة شعره ، وبالإكثار من التشبيهات . ويقرن فى هذا الصدد إلى كل من امرىء القيس فى الجاهلية ، وذى الرمة فى عصر بنى أمية .

ويغلب على شعر ابن المعتز الفخر والغزل والوصف والحديث عن حياة الترف والغنى ، ومجالس الشراب واللذات ، والخروج إلى الصيد . إلى جانب قدْر غير قليل من الشعر السياسى الذى شارك فيه لا كشاعر تابع ، وإنما كشريك فى الأسرة الحاكمة ، وعضو منافس .

طبع ديوان ابن المعتز عدة طبعات فى مصر وبيروت .. يقول :ــ

أردتُ الشـــرب فى القمـــر
وقطـــعَ الليـــل بالسـهـــر
وقـــد جمَّـــعت مايُلهـــى
فلـــم أتـــرك ولم أذر[1]
فدبَّ الـــغيم معتمـــدا
فأخفـــاه[2] عن النظـــر

---

(١) **لم أذر** : لم أترك ولم أهمل . (٢) **فأخفاه** : ضمير المفعول هنا يعود على القمر . يقصد أن الغيم هو الذى أخفى القمروحجبه

فبتُّ أفـــــور من غضب
على الأحـــداث والغِيَـــر [1]
وجـــاء إلـــيَّ شيطـــانى
يحرِّشنـــى [2] عـــلى القَـــدَر
وحـــاول كَفْـــرةً منـــى
وجـــرَّأنى عـــلى سَقَـــر [3]
فقـــام العقـــل يطفـــىء عن
فـــؤادى جمـــرة الضَّجَـــر
وولى آيســـا منـــى
وفـــزت عليـــه بالظَّفَـــر
ووكَّـــل بـــى تـــلامـــذة
فأسقَـــوْنى إلى السَّحَـــر
وأبـــدوْا لى مليـــح الوجـــ
ـــهِ ، منقوشـــاً من الشَّـــرَر [4]
تمـــرَّن فى الهـــوى وبـــدا
وحـــلَّ مخانـــق السُّـــرَر
فمـــا يأبَـــى على طَلَبٍ
ولا يُغضى من الحَفَـــر

---

(١) **الغِيَر** : غير الدهر أحداثه (٢) **يحرشنى** : يحرضى ويغرينى
(٣) **جرأه على سقر** : سقر : جهنم ، وجرأه عليها : أغراه بفعل المعاصى فيدخل جهنم .
(٤) **منقوش من الشرر** : الشرر : ماتطاير من النار ، والمقصود أن هذا الغلام الذى أبدوه له جميل الصورة ، وكانوا يُشبهون بالنار فى الدفء والنشاط وخفة الحركة والجمال أيضاً .

وأغـــــروْنى فكـــــان إليـــــ
ـــه ما قـد كان فى سَـكَـرى
فلمـــــا أصبحـــــــوا طاروا
إلى إبليـــــــس بالخبـــــــر

التشتت السياسى
والازدهار الأدبى

التشتت السياسى والازدهار الأدبى

١

بلغ أمر الخلافة العباسية فى مطلع القرن الرابع حداً بعيداً من التضعضع والضعف ؛ بسبب هيمنة الجند الأتراك على مقدرات الدولة واستئثارهم بمقاليد الحكم الفعلية من دون الخلفاء الذين صاروا ألعوبة فى أيديهم ، يسيِّرونهم كيف شاءوا ، فإن لم يفعلوا ضيقوا عليهم وقتلوهم ، أو خلعوهم وسملوا أعينهم ، حتى لقِّب الأتراك بقتلة الخلفاء .

وقد أدى هذا الاستبداد بالخلفاء ، والاستهانة بهم ، إلى ضعف شأن الخلافة ، وانتشار الفوضى والفتن والاضطرابات ؛ الأمر الذى خلق اتجاهاً إلى اللامركزية فى حكم دولة الخلافة ، يتقى بها تمزقها ، ويحفظ عليها تماسكها .

وكان المهتدى بن الواثق أول من تنبه إلى ذلك فى بداية النصف الثانى من القرن الثالث ، وتوسع فى ذلك المعتمد بن المتوكل (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ) الذى قسم الدولة بين ابنه وأخيه . إذ عهد إلى ابنه المفوض بجناحها الغربى ، فى حين عهد إلى أخيه الموفق بجناحها الشرقى ، وجعل له ولاية العهد من بعد ابنه المفوض ، وعهد إلى القائد التركى (موسى بن بغا) بأن تكون له مسئولية الإدارة والإشراف على مناطق بعينها من الجناح الغربى ، كأفريقيا ومصر والشام والجزيرة والموصل ، وأرمينية ، وطريق خراسان .

إلا أن هذه السياسة لم تؤد إلى الهدف الذى انتُهجت من أجله ، بل أدت إلى نقيضه . فقد حاول كل من أولياء السلطة تكريس نفوذه ، والاستئثار بمزيد من السلطات . ونجح ابن طولون أثناء خلافة المعتمد فى الاستقلال بمصر والشام ، حتى الرَّقَّة التى اتخذها مقراً لولايته .

وكان القرامطة بزعامة حمدان بن قرمط ، وأبى سعيد الجنابى فى البحرين ، وابن حوشب فى اليمن ، وأبى عبد الله الشيعى ، صاحب الدعوة الفاطمية ، الذى قضى على الأغالبة فى المغرب ، قد استقلوا بما تحت أيديهم ، وبدأ يظهر أمر نصر بن أحمد السَّامَانِىّ ، فأسس الدولة السامانية فى بلاد ماوراء النهر ، وما لبث أن بسط سلطانه المطلق على فارس .

ويدخل القرن الرابع وعلى رأس دولة الخلافة غلامٌ غِرٌّ فى الثالثة عشرة من عمره ، هو المقتدر ، وكان عهده أسوأ العهود ، فقد شاعت الفتن والسلب والنهب ، وصارت مقاليد الأمور بيد أمه ونسائه وخَدَمِه ؛ فخربت الدنيا ، وخلت بيوت المال ، واختلفت الكلمة ، فَخُلِع ثم أُعِيد ، حتى انتهى أمره بالذبح بيد أحد قواده .

على أثر ذلك تملَّك الإخشيديون مصر ، واستقل أمراء بنى حمدان بالموصل ، وديار بكر ، وربيعة ، ثم حلب . واستطاع البيزنطيون أن يشنوا غاراتهم المتصلة على الثغور ، التى ضعفت حمايتها .

ولم تكن بلاد فارس ، وما وراء النهر ، أحسن حالاً من بقية أجزاء الدولة ، بل كانت أسرع أجزائها إلى تحقيق نوع من أنواع الاستقلال ، فقامت بها عدة دول كالطاهرية والصفارية والسامانية . كما قامت دولة الدَّيالِمَة التى تعاورها (ما كان بن دالى ، ومرداويج بن زيار) . ولكن أخطر دول الديالمة على الإطلاق هى دولة بنى بُوَيْه ، التى استولت على بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

وتصل المأساة ذروتها فى عهد الخليفة الراضى ، الذى تبعه ثمانية خلفاء إلى سقوط الخلافة . فعلى الرغم من أن المؤرخين يذكرون أنه كان آخر خليفة انفرد بتدبير

الجند ، وآخر خليفة خطِبَ له على المنابر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس النُّدماء فإنه لم يبق له غير بغداد وأعمالها ، والحكم فيها جميعاً لابن رائق ، ليس للخليفة حكم معه . وكانت البصرة على عهده فى يد ابن رائق ، وخُوزِستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكِرْمان فى يد أبى على محمد بن إلياس ، والرَّىُّ وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة البويهى ، وشمكير أخى مرداويج يتنازعانها ، والموصل وديار بكر وربيعة وحلب فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طُغْج الإخشيدى ، والمغرب وأفريقيا فى يد عبد الرحمٰن الناصر الأموى ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديالمة ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى .

• • •

٢

كان هذا حال المنطقة الإسلامية آنذاك . والعجيب أن هذا الاضمحلال السياسى لم يرافقه اضمحلال فكرى وثقافى وأدبى ، بل على النقيض من ذلك ، فإن الحياة الفكرية والثقافية والأدبية فى تلك الأمصار المتفرقة قد شهدت نهضة واذدهاراً واضحين ؛ يردُّهما المؤرخون إلى مايحيط به بناة الدول أنفُسَهم وبلاطَهم من المفكرين والأدباء والفنانين ، وما ينجم عن هذا التعدد والتناظر من منافسة .

ولقد كان بلاط سيف الدولة فى حلب نموذجاً فريداً لهذه النهضة وهذا الازدهار ، إذ كان الأمير الحمدانى شاعراً ناقداً ، فاجتمع حوله مَنْ لم يجتمع حول غيره ، بما فى ذلك دار الخلافة فى بغداد ، فقد غُصَّ بلاطه بعلماء العصر وفلاسفته ومفكريه وشعرائه ، فكان هناك ابن عمه الشاعر الفارس الأمير أبو فراس ، وأبو العباس النَّامى ، والناشى الأصغر ، والسَّرِى الرَّفَّاء ، وأبو الفرج السَّامرى ، والببَّغاء ، وكشاجم ، وغيرهم .. يغردون بمدائحه آلاف القصائدِ ، فضلاً عن شاعر العربية الأكبر المتنبى ، الذى ألَمَّ بهذا البلاط تسع سنين ، خلَّف فيها سيفياته المشهورة .

وكان هناك من الأدباء ابنُ خالَوَيْه ، وأبو على الفارسى . ومن الفلاسفة أبو نصر الفارابى . ويذهب الثعالبى إلى أنه اجتمع ببابه من العلماء والشعراء والفلاسفة والموسيقيين والمغنين ، مالم يجتمع بباب أحد من الملوك ، وخرج فى تلك البيئة – بعد ذلك – شاعر المعرَّة ، وفيلسوفها المشهور أبو العلاء .

وقد كان الأمراء يتخاطفون الشعراء ، ويغرونهم بكل وسيلة للقدوم إليهم ، كما حدث بين بلاط الإخشيديين والحمدَانيين بالنسبة للمتنبى ، فقد بذل له رجال كافور فى دمشق الوعودَ ، وأمَّلوه فى تولى ولاية الشام ، بعد أن خرج إلى دمشق مغاضباً لسيف الدولة ، فلم يَرَ بُدًّا من الاستجابة ، وتوجه إلى الفسطاط حيث وجد فيها لفيفاً من الشعراء المصريين ، الذين وجدوا فى رعاية كافور ووزيره أبى جعفر ابن الفضل بن الفرات المعروف بابن حِنَزَابة – مادفعهم إلى الإحسان والتجويد : كأبى القاسم بن أبى العفير الشاعر ، ومحمد بن موسى الملقب بسيبويه المصرى ، وكلاهما تصدى للمتنبى . وكصالح بن رُشَيْدين وجماعته التى كانت تتشبه بعصابة أبى نواس . وعبدالله بن أبى الجوع ومحمد بن الحسن اليمنى . والحسن بن محمد الشهواجى . وصالح بن مؤنس وزمرته من شعراء التَّصافُع . وابن أبى الزلازل وأبو تميم سليمان بن جعفر . وأحمد بن عبدالله بن أبى العصام . كما كان بالفسطاط طائفة من النقاد واللغويين والنحاة تصدوا للمتنبى ، وحاوروه ، وتربصوا بشعره .

وعلى هذا النحو كانت الفسطاط وغيرها من مدن مصر الكبرى فى الصعيد والدلتا ، تَعِجُّ بالنشاط العلمى والأدبى ، كما تعج به مجالس كافور ، ومجالس وزرائه وقواده ، حتى ليدبروا استقدام المتنبى إلى مصر ، وتحويله عن الحمدانيين إليهم ، والاستئثار دونهم بسلاح من أمضى أسلحتهم .

وقد أخرجت مصر فى هذا العصر ، وما تلاه على عهد الفاطميين والأيوبيين شعراء وأدباء عديدين ، أضافوا إلى التراث العربى الشعرى والنثرى نماذج رفيعة من مثل ماخلَّفه تميم بن المعز الفاطمى ، وأبو الحسن التهامى ، وعمارة اليمنى ، والقاضى الفاضل ، وابن قَلاقس ، وابن النبيه المصرى ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ... وغيرهم .

ولم تكن هذه النهضة قاصرة على مصر والشام فحسب ، وإنما كان هذا شأن المراكز العربية الثقافية المختلفة ، إنْ فى شرقى الدولة ، أو فى غربها . فقد كان شرقى الدولة : أى إيران ، وخراسان تحت نفوذ فارسىٍّ خالص ، فيما عدا دولة الغَزْنويين التركية ، إذ امتدَّ نفوذ السامانيين فى خراسان وما وراء النهر فى النصف الثانى من القرن الرابع ، فى حين مدَّ البُوَيْهيون سلطانهم على الولايات الجنوبية الغربية من إيران ، كما بسطوه على العراق وبغداد نفسها ، كما مرَّ بنا ، وظلَّ سلطانهم مبسوطاً هناك طوال النصف الأول من القرن الخامس .

وكانت هناك إمارتان صغيرتان : إحداهما فى خوارزم ، والأخرى فى طبرستان وجرجان ، حيث كانت تحكم أسرة الزِّياريّين ، وتظهر فى أواخر القرن الرابع الدولة الغَزْنوية ، فتستولى على ماكان بيد السامانيين .

وقد هيأت هذه الدويلات والإمارات لحركة أدبية وفكرية واسعة ، بفضل ماكان يُبذل من رعاية للقائمين عليها ، وماكان يحرص عليه كل حاكم من وجود أعلام الأدب والفكر فى بلاطه ، وبين حاشيته ، لينافس بهم حكام الإمارات والدويلات الأخرى . وكثيراً ماكان هؤلاء الحكام يستوزرون الأدباء ، كما فعل السامانيون مع والد ابن العميد ، الذى كان وزيراً بدوره للبويهيين ، كما استوزروا الصاحب بن عبَّاد ، وهذان هما أهم كتَّاب العصر .

ولكى ندرك مدى ماكان يبذله هؤلاء الحكام ووزراؤهم الأدباء من رعاية للأدب ، نورد ماذكره الثعالبى عن الصاحب بن عباد ، قال :ـــ واحتفَّ به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يُرى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ومِلْك زِقّ المعانى » . ويذكر الصاحب أنه مُدِحَ بمائة ألف قصيدة شعر : عربية وفارسية . وأنه أنفق أمواله على الشعراء والأدباء والزوَّار والقُصَّاد . وقد كان كثير من بنى بويه أنفسهم شعراء كعضُد الدولة ، وابنه تاج الدولة . كما كان الوزير المهلَّبىُّ شاعراً مرموقاً من شعراء البويهيين .

وفى العراق كانت البصرة تعج بالشعراء ، كالقاضى التَّنوخى ، وابنه عبد المحسن ، وابن لَنْكك، وابنه إبراهيم ، والنمرى ، والمفجَّع ، وأبو عاصم . أما بغداد فكان بها ابن نباتة السعدى ، وأبو الحسن السَّلَامى ، وابن سكَّرة الهاشمى ، وابن الحجاج ، والشريف الرضى ، ومهيار الديلمى وغيرهم . وكان الشعراء دائمى التنقل بين المدن المختلفة ، التى كانت مراكز حقيقية للفكر والثقافة والأدب ، كنَيْسَابور التى أخرجت الثعالبى ، وهمْذَان التى أخرجت بديع الزمان ، وأصبهان التى أخرجت الصاحب بن عباد ، والرَّى مستقر ابن العميد ، وخوارزم التى أخرجت أبا بكر الخوارزمى ، وطبرستان التى أخرجت قابوس بن وشْمَكير . وقد عقد الثعالبى فى يتيمة الدهر فصولاً لهذه المدن وشعرائها ، وأدبائها ، وصدَّر كتابه بتفضيل شعراء الشام على سائر البلدان بما فى ذلك العراق ، ويرد ذلك إلى قربهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز وبُعْدِهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق ، لمجاورة الفرس والنَّبَط ، ولما جمع شعراء الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة .. إلى تشجيع ملوكها وأمرائها للأدب والأدباء ، كما فعل بنو حمدان وبنو ورقاء .

ويميز كثير من النقاد بين شعر الشام وشعر العراق . ويجعلون طريقة البحترى نموذجاً لفن الشاميين . وهى طريقة تجمع إلى حسن الانسجام ، ودقة الصنعة ، ذاك التوقيع الموسيقى الحلو النغم ، فكأنهم نظموا شعرهم لِيُغَنَّى به – فى حين غلب على شعر أهل العراق التأثر بالأفكار الفلسفية ، والثقافات الأجنبية التى دخلت إلى العقل العربى ، فأفادته طرافة وابتكاراً ، وإن لم تخلص لغته خلوص لغة أهل الشام .

٣

والذى جلعنا لا نتحدث حتى الآن عن الأندلس ؛ أنها خرجت من حيِّز الدولة العباسية منذ وقت مبكر ، حيث تكونت فيها الدولة الأموية الأندلسية ، التى لم تبق على وحدتها طويلاً ؛ بسبب تعدد مناطق الأندلس ، واختلافها طبيعياً وسكانياً . الأمر الذى جعل من الصعب أن تسود شبه الجزيرة وحدة سياسية ، أو ائتلاف يجعلهم يشعرون بأنهم أمة واحدة . فإذا الجزيرة تصبح بدورها إمارات كثيرة على نحو ماهو معروف فى عصر ملوك الطوائف ، وسرعان مافقدت استقلالها ، وخضعت للملثَّمين المغربيين ، ثم لخلفائهم الموحَّدين .

وقد ظلت الأندلس والمغرب تلتمسان النماذج الأدبية المشرقية . وظل الشعراء فيها يحاولون محاكاة المثل العليا الشعرية لدى أعلام المشرق . وعلى الرغم من أنه أخذت تحدث هناك نهضة شعرية منذ القرن الرابع للهجرة – آتت أُكُلها فى عصر ملوك الطوائف – فإن ظلال المُثُل الشعرية القديمة استمرت رائدة فيها ، حتى أصبح همُّ الشاعر الممتاز – دائماً – أن يستوحى هذه المثل ، وأن يحاكيها محاكاة دقيقة .

ويصور لنا ذلك ابن بسَّام فى فَاتحة كتابه[1] الذى عرض فيه لتلك النهضة الشعرية على عهد أمراء الطوائف فيقول :ــ « إن أهل هذا الأفق أَبَوْا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع أهل الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجَثَوْا على هذا صَنَماً ، وتَلَوْا ذلك كتاباً محكماً » .

ولهذا ظل شعر المغرب والأندلس مصبوغاً بِصِبْغ محافظ ، جعله لا يتطور إلا بمقدارٍ ضئيل ، كما ظلَّ يتمسك بموضوعات الشعر المعروفة . ومهما حاول الشعراء التجديد فيها فإن تجديدهم لايمس الجوهر إلا مسًّا طفيفاً ، فيما عدا

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

الموشَّح ، الذى كان نتيجة طبيعية لازدهار الموسيقى والغناء بالأندلس . وإن كانت أصوله الأولى مشرقية ، سواء فى نظمها على الأعاريض المهملة ، التى تُرَدُّ إلى دوائر الخليل العروضية ، أو فى اشتمالها على خَرْجَةٍ ملحونة . وقد سبق إلى ذلك غير شاعر من الشعراء العباسيين ، ممن كانوا يتظرفون باستظهار بعض الكلمات الفارسية ، واتساع أبى نواس فى ذلك مشهور . ومن يَقْرِن الموشحات إلى المسمَّطات العباسية لا يشك فى أنها تطورت عنها ، وتفرعت منها على نحو معين ؛ إذ تتألف المسمطات من أدوار تنتهى بشطر يتَّحد فى رويِّه مع مقابله فى جميع الأدوار . على حين يختلف الروى فى شطور كل دور يسبقه . والفرق الوحيد الذى يمثل تطور الموشحات عن المسمطات أنها – أى الموشحات – عدَّدت الشطر الذى تختم به أدوار المسمطات ، واتخذت من ذلك أقفالاً متقابلة . ويذكر ابن سناء الملك أن أكثر الموشحات مبنى على تأليف الأرغن وتلاحينه . ويضيف الدكتور شوقى ضيف[1] أنها مبنية على مُنْشد وجَوْقَة ؛ لأنها تجرى على أساس وحدتين : وحدة الأقفال ، ويغلب أن تكون ستة ، وقد تزيد أو تنقص ، ووحدة الأغصان ، ويغلب أن تكون خمسة ، وقد تزيد أو تنقص تبعاً لزيادة الأقفال ونقصها . وعادة ماتبدأ الموشحة وتنتهى بقُفل ، ونادراً ماتبدأ بغصن . والغالب أن تكون الأقفال والأغصان من وزن واحد . وقد يكون لكل منهما وزنه الخاص . وشطور الأقفال متحدة فى رويِّها ، فى حين يستقل كل غصن برويِّه الخاص فى شطوره . ويسمى القُفْل الأخير بالخَرْجَة ، وهو أحياناً يجرى مع الموشحة فى لفظها الفصيح ، وأحياناً يختار من عبارة عامية أو أعجمية مما يشيع على ألسنة العامة .

وأول من نظم هذا الفن فى الأندلس مقدم بن معافى القُبَّرى ، الذى عاش فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأخذه عنه ابن عبد ربه صاحب (**العقد الفريد**) . وظلت الموشحات على صورتها الساذجة حتى ظهر الرمادى فى أواخر

---

(١) **الفن ومذاهبه فى الشعر العربى** للدكتور شوقى ضيف

القرن الرابع فتقدم بها خطوات ، وتبعه عبادة بن ماء السماء فى أوائل القرن الخامس ، فأتم صياغتها بشطورها القصيرة ، وأغصانها وأقفالها المتقابلة .

وتداولها الكثيرون فى عصر أمراء الطوائف . والسابق فيهم – دون مُنازع – عبادة القزاز . ولا يقل عنه إبداعاً الأعمى التُّطِيلىّ فى عصر المرابطين . ثم اشتهر فى عهد الموحدين وشَّاحون كثيرون من مثل : ابن نزار وابن زهر وابن هردوس وابن حزمون . ثم اشتهر بعد ذلك ابن زمرك ، ولسان الدين بن الخطيب . وتزخر كتب (**المُغْرب**) لابن سعيد ، و (**دار الطِّراز**) لابن سناء الملك ، و (**جَيْش التوشيح**) لابن الخطيب ، و(**أزهار الرياض**) للمقرى ، تزخر كل هذه الكتب بموشحات لوشَّاحين عديدين .

ولا تختلف الموشحات فى أغراضها ومعانيها وأخيلتها عن الشعر الأندلسى بعِامة ، حتى إنها تضمنت أغراضاً كالرثاء ، والمديح النبوى ، والتصوف ، والطَّرد ، وغيرها . ولكنها تزخر بقيم موسيقية عالية ، وأنغام وإيقاعات دقيقة ، بفضل شطورها القصيرة .

هذه لمحة خاطفة عن صورة الأدب العربى فى عصر الدويلات ، ومنها يتضح أن تعدد مراكز الثقل السياسى – وإن ترتب عليه تشتت القوة السياسية والعسكرية للدولة الإسلامية – أدى إلى ازدهار التأليف فى شتى فروع الأدب ، بل إن مراكزه قد تدعمت . ولئن كان البعض يرى أن ذلك كان بسبب المنافسة التى قامت بين هذه المراكز المتعددة ، إلا أننى أرى أن حسَّ الأدباء والشعراء والمبدعين يكون دائماً أسبق إلى رأب الصدع ، والدعوة إلى جمع الكلمة ؛ لأنهم – دائماً – ضمير أمتهم ويخشون مع كل انفلات سياسى أن تضيع الكلمة ، وتبهت الفكرة ، فيضيع معهما كل أثر .

تـلك آثـارهـم

وبنَفْسى فَخَرْتُ لا بجُدُوى

للمتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ)

أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى ، ولد بالكوفة ، وتنقل منها إلى الشام ومصر وبلاد فارس ، واتصل بكثيرين من ولاة الأمور فى تلك البلاد ، منهم كافور الإخشيدى فى مصر ، وابن العميد وعضد الدولة بفارس . وكان أبرز من اتصل بهم ، وأكثرهم تأثيراً عليه سيف الدولة الحمدانى الذى عرفت مجموعة قصائده فيه باسم « السَّيْفيات » .

وتتبدَّى - دائماً - فى شعر المتنبى آثار شخصيته القوية . وتصادفنا فى أشعاره الأولى جرأة كبيرة على الأديان والمعتقدات ، فى حين تظهر فى أشعاره التالية آثار ثقافته الواسعة فى مجالى الفلسفة واللغة ، مما جعل ديوانه هدفاً لكثير من الشروح والتعليقات ، مثله فى ذلك مثل ديوان أبى تمام . وقد طُبع ديوانه عدة طبعات بشروح مختلفة . والقصيدة التى نوردها من ديوانه بتحقيق الدكتور مصطفى السقا وآخرين ٣١٣/١ يقول المتنبى :ـــ

كم قتيلٍ - كما قُتِلْتُ - شهيدٍ
بيـاضِ الطُّلَـى[١] ، وورْدِ الخُـدودِ
وعيـونِ المَهَـا ، ولا كَعُيُـون
فتـكتْ بالمتيَّـم[٢] المَعْمُـود[٣]

---

(١) **الطلى** : جمع طلية وهى الرقبة (٢) **المتيم** : المسحور بالحب
(٣) **المعمود** : المدنف الذى أضرَّ به العشق

درَّ دَرُّ الصِّبَـا[1] ، أَيـامَ تجريـ
ـرِ ذُيـولى بدارِ أَثْلَـةَ[2] عُودى
عَمْـرَكَ اللهُ[3] هل رأيتَ بُدُوراً
طلـعتْ فى براقـعٍ وعُقـود
راميـاتٍ بأسهمٍ ريشُـها الهُـدْ
ـبُ تشقُّ القـلوبَ قبـلَ الجُـلود
يترشَّفْـن من فمـى رَشَفَـاتٍ
هنَّ فيـه أحلَـى من التوحيـد
كلُّ خَمْصَانَـةٍ[4] أرقُّ من الخمْـ
ـرِ ، بقلبٍ أقسـى من الجُلْمـود
ذاتِ فرعٍ كأنما ضُرِبَ العَنْـ
ـبَـرُ فيـه بماءِ وردٍ وعُـود
حالكٍ كالعُـدافِ جَثْلٍ دَجُوجِيْـ
ـيٍ ، أثيثٍ ، جعـدٍ ، بلا تجعيد
تحمـلُ المسكَ عن غدائِرِها الريـ
ـحَ ، وتفتـر عن شتـيت[5] برود[6]
جَمَعَتْ بين جسـمِ أحمـدَ[7] والسُّقْـ
ـمِ ، وبين الجُفُـون والتَّسْهيـد

---

(١) **درَّ درُّه** : تركيب يراد به الدعاء ومعناه كثر خيره . والدر : اللبن الكثير

(٢) **دار أثلة** : مكان (٣) **عمرك الله** : أبقاك الله .

(٤) **خمصانة** : ضامرة البطن . (٥) **الشتيت** : البعيد والمتفرق . ويقصد الأسنان المفلجة ، وهو أطيب للفم ولرائحته .

(٦) **البرود** : البارد ، يقصد برودة فمها ، وكانوا يمدحون الفم بطيب الرائحة ، وطيب الريق وبرودته . (٧) يعنى بأحمد نفسه

هــذه مهجتــى لَدَيكِ لِحيْنــــى[1]
فانقُصى من عذابها أو فَزِيـدِى
أهْـل مابي من الضَّنَى بَطَلٌ صيـ
ـدَ ، بتضعيــفِ طُرَّةٍ وبجيــــد
كلُّ شيءٍ من الدمــاءِ حــرامٌ
شـربُـهُ ، ماخــلا دَمَ العُنْقُــود[2]
فاسقِنيها ، فـدًى لعينيكَ نفْسـى
من غــزالٍ ، وطـارِفِـى وتَـلِيـدِي
شيبُ رأسى ، وذِلَّتى ، وتُحُـولى
ودُمُوعــى على هَوَاكَ شُـهُــودى
أىّ يــومٍ سَرَرْتَنــى بوصــالٍ
لم تَرُعْنــــى ثلاثــــةً بصُدُود
ما مُقَامِــى بأرض نخلــــةَ إلاَّ
كمُقَــامِ المسيــح بين اليهــود[3]
مفْـرَشِى صَهْوَة الحِصَـانِ ولكـنْ
نَ قمــيصى مَسْرُودَةٌ[4] من حديــد
لَأْمَةٌ فَاضَــــــةٌ أضَاةٌ دِلاَص[5]
أحكــمتْ نسجَهــا يــدا دَاوُود[6]

---

(١) الحيْن : الأجل . (٢) يعنى الخمر ؛ لأنها تؤخذ من عصير العنب .
(٣) يعزون إلى هذا البيت تلقيبه بالمتنبى
(٤) المسرودة : الدرع .
(٥) لأمة : درع . فاضة : واسعة
الأضاة : أصل الغدير ، ويشبه به الدرع فى لمعانه واستوائه
دلاص : ملساء لينة
(٦) يعنى بداود النبى الملك ، وكان يصنع دروعاً من الحديد .

أين فضلِى إذا قَنِعْتُ من الدَّهـ
ـر بعيـــشٍ معجَّـــلِ التَّنْكِيـــد
ضاق صدرى وطالَ فى طلبِ الرز
ق قيامى ، وقلَّ عنه قُعُـودى
أبدا أقطـعُ البـــلادَ ونجْمـــى
فى نُحُوسٍ ، وهِمَّتى فى سُـعود
ولعلِّـــى مؤمِّـــلٌ بعضَ ما أبْـــ
ـلُغُ باللُّطْف من عزيزٍ حميد
لِسَـرِىٍّ لِبَاسُـــهُ خَشِـــنُ القُطْـــ
ـنِ ، ومروىٌ مَرْوَ لِبْسُ القُـرود
عش عزيزاً أو مُتْ وأنت كـريمٌ
بين طعنِ القنا وخفـقِ البُنُـود
فَرُءوسُ الرِّمـــاحِ أذهبُ للغَيْـــ
ـظِ ، وأشـفى لِغِلِّ صَدْرِ الحَقُود
لا كما قد حييتَ غَيْرَ حميدٍ
وإذا مُتَّ مُتَّ غيـرَ فقيـــد
فاطلب العزَّ فى لَظًى ، وذَر الذلْـ
ـلَ ، ولو كان فى جِنَانِ الخُلود
يُقْتَلُ العاجـزُ الجبـانُ وقد يعـ
ـجِزُ عن قطـعِ بُخْنُـــق[1] المَوْلـــود

---

(١) البخنق : خرقة يقنع بها الوليد ، ويشد طرفاها تحت حَنَكِهِ لتوقى الغبار .

ويوقّى الفَتَى المِخَشّ[1] وقد خـوْ
وَض فى ماء لبـــةِ الصِّنْديـــد
لا بقومى شـرُفْتُ بل شَرُفُوا بى
وبنـــفسى فَخَـــرْتُ لا بِجُـــدُودى
وبهم فخرُ كلِّ من نطَقَ الضا
دَ ، وعَوْذُ الجَانِى ، وغوثُ الطَّرِيد
إن أكنْ مُعْجَباً فعجبُ عجيبٍ
لم يجدْ فوق نفسِـه من مَزِيد
أنا تِرْبُ[2] النَّـــدَى ، وربُّ القَـــوَافى
وسِمَامُ العِدَا ، وغيـظُ الحَسُـود
أنا فى أمَّـــةٍ تدارَكَهَـــا اللَّـــ
ـهُ ، غريبٌ كصالحٍ فى ثمـــودِ

---

(١) المخش : المقدام
(٢) ترب : صنو

طَـالَ اغـترابى

للطغرائى (٤٥٣ ــ ت حوالى ٥١٥)

٢

مؤيد الدين الحسين بن على بن محمد الأصفهانى ، المعروف بالطغرائى ذكر ياقوت فى (الإرشاد) أنه خدم السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان ، وكان منشىء السلطان محمد السلجوقى مدة ملكه بالموصل ، يتولى ديوان الطغراء (وهى الطُّرَّة التى تكتب فى أعلى المناشير فوق البسملة ، تتضمن اسم الملك وألقابه) ومن هنا جاء لقب (الطغرائى) . تولى ديوان الإنشاء ، وتشرفت به الدولة السلجوقية ، وتشوفت إليه المملكة الأيوبية ، وتَرَشَّح للوزارة . قال ياقوت : وله فى العربية والعلوم قدم راسخة ، وله البلاغة المعجزة فى النظم والنثر . ويصدر شعر الطغرائى – وبخاصة القصيدة التى اخترناها له – عن تجربة ومعاناة خاصة ، يحسُّها كل من يقرأ القصيدة . طبع ديوانه أكثر من مرة ، آخرها وأجودها طبعته بتحقيق الدكتور على جواد الطاهر ، والدكتور يحيى الجبورى بالعراق .

يقول الطغرائى :ــ

أصالـةُ الـرأيِ صانتْنى عن الخَطَـل(١)
وحِلْيَـةُ الـفضلِ زانتنى لدى العَطَـل(٢)
مجدى أخيرا ، ومجـدى أولا ، شَرَعٌ(٣)
والشمس رَأْدَ الضحى(٤)، كالشمس فى الطَّفَل(٥)

---

(١) **الخطل** : فحش الكلام والاعوجاج .

(٢) **العطل** : هو أصلا : خلو عنق المرأة من حليها ، ومقصود به هنا إعفاؤه من الوزارة .

(٣) **شرع** : سواء .

(٤) **رأد الضحى** : وقت ارتفاع الشمس ، **ورأد الضحى** : ارتفاعه .

(٥) **الطفل** : ميل الشمس إلى الغروب .

فيم الإقامةُ بالزوراءِ لا سكنـــى
بها ، ولا ناقتى فيها ولا جمـــل
ناءٍ عن الأهلِ ، صِفْرُ الكفِّ ، منفردٌ
كالسيفِ عُـرِّىَ متنـاهُ مِنَ الخِلَـــلِ (١)
فلا صديقٌ إليه مُشْتَكَى حَزَنى
ولا أنـــيسٌ إليـــه مُنْتهى جَذَلى (٢)
طال اغترابىَ حتى حَنَّ راحِلَتِى
ورحلُها ، وقَرَى العسَّالـةِ الذُّبُـــلِ (٣)
أريد بسْطَة كفٍّ أستعيـــنُ بها
على قضاء حقـوقٍ للعُـلا قِبَـلى
والدهر يعكـسُ آمالى ويُقْنِعُنـــى
من الغنيمة بَعْـــدَ الكـــدِّ بالقَفَـــلِ (٤)
وذى شِطَاطٍ (٥) كصدر الرمح معتقلٍ
بمثله ، غيـــرِ هيَّـــابٍ ولا وَكِـــلِ (٦)
حلوِ الفكاهةِ مُرِّ الجِدِّ قد مُزِجَتْ
بقسـوةِ البأسِ فيه رِقَّةُ الغَـزَل
طردتُ سَرْحَ الكرى عن وِرْدِ مُقْلَتِه
والليل أغْرى سَوَامَ النوم بالمُقَلِ

---

(١) **الخلل** : جمع خلة ، وهى بطانة منقوشة بالذهب يغطى بها جفن السيف – **ومتنا السيف** : جانباه .
(٢) **الجَذَل** : الفرح ، ويقصد أنه بلا أصدقاء ، يبوح لهم بما يعتمل فى نفسه من حزن أو مسرة
(٣) **العسالة الذبل** : الرماح المرنة القوية . **والقرى** : حد سنان الرمح
(٤) **القفل** : الرجوع . والمقصود هنا مجرد الرجوع سالما .
(٥) **الشطاط** : الطول ، وحسن القوام واعتداله .
(٦) **الوكل** : العاجز .

والركب مِيلٌ على الأكْوَارِ[1] من طرِبٍ
صاحٍ ، وآخرَ من خمرِ الكرى ثَمِلِ
فقلت : أدعوكَ للجُلَّى لتنصرنى
وأنت تخْذُلنى فى الحادث الجَلَل
تنام عنى ، وعينُ النجم ساهرةٌ
وتستحيلُ[2] ، وصِبْغُ الليل لم يَحلِ
فهل تُعينُ على غىٍّ هممتُ به
والغىُّ يزجُرُ أحياناً عن الفَشَل
إنى أريد طُروقَ الحىِّ من (إضَمٍ)
وقد حماهُ رماةٌ من (بنى ثُعَل)
يحمون بالبيضِ والسُّمْرِ اللِّدَانِ[3] به
سودَ الغدائِر ، حُمْرَ الحَلْيِ والحُلَلِ
فسِرْ بنا فى ظلام الليل مهتديا
بنفْحة الطيب ، تَهْدينا إلى الحلل
فالحِبُّ[4] حيث العدا ، والأُسْدُ رابضةٌ
حول الكِنَاسِ ، لها غابٌ من الأَسَل
نَؤُمُّ نَاشِئَةً بالجِزْعِ قد سُقِيَتْ
نصَالُها بمياهِ الدَّلِّ والكَحَلِ
قد زاد طيبَ أحاديثِ الكرامِ بها
ما بالكرائِم مِن جُبْنٍ ومن بَخَل

---

(١) **الأكوار** : جمع كور : وهو الرحل الذى يوضع على ظهر الجمل ليُركب عليه .
(٢) **تستحيل** : تتغير وتتنكر .
(٣) **السمر اللدان** : الرماح التى جمعت بين القوة والليونة . فهى لاتنكسر
(٤) **الحب** : المحبوب .

تبيتُ نارُ الهوى منهنَّ فى كبِدٍ
حرَّى ، ونارُ القِرَى منهم على القُلَل (١)
يقتلن أنضاءَ حُبٍّ (٢)، لا حَرَاكَ بهم
وينْحَرون كرامَ الخيلِ والإبل
يشفى لديغُ الغوانى فى بُيُوتهمُ
بنَهْلَةٍ من لذيذ الخمر والعسل
لعل إلمامةً بالجِزْع ثانيةً
يدبُّ منها نسيمُ البُرْءِ (٣) فى عِلَلِي
لا أكره الطعنةَ النجلاءَ (٤) قد شُفِعت
برشْقَةٍ من نِبَالِ الأعيُنِ النُّجل
ولا أهاب صِفَاحَ البيضِ تُسْعِدُنى
باللَّمْح مِنْ صَفَحَاتِ البيضِ فى الكِلَلِ
ولا أُخِلُّ بغزلانٍ أغازِلُها
ولو دَهَتْنى أسودُ الغِيلِ بالغِيَلِ (٥)
حُبُّ السلامةِ يَثْنِى عزمَ صاحِبه
عن المعالى ، ويُغْرِى المرءَ بالكَسَل
فإن جنَحْتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقاً
فى الأرض ، أو سُلَّماً فى الجو فاعْتَزِل

---

(١) **القلل** : جمع قلة ، وهى الجبل ، وأعلى الرأس ، والسنام
(٢) **أنضاء** : جمع نضو : وهو المهزول من الإبل وغيرها ، ويقصد بالأنضاء هنا من أضناهم الحب وأنحلهم .
(٣) **البرء** : الشفاء ، **والعلل** الأمراض .
(٤) **الطعنة النجلاء** : الطعنة العميقة الواسعة .
(٥) **الغيل** : جمع غيلة ، وهى الاغتيال والخديعة .

ودع غِمَارَ[1] العُلَا للمُقْدِمين على
رُكُوبها ، واقتنِعْ منهنَّ بالبَلَلِ
يَرْضى الذليلُ بخفْض العيش مَسْكَنَةً
والعزُّ تحت رَسِيمِ الأيْنُقِ الذُّلُلِ
فاذْرَأْ بها فى نُحُورِ البيد جافلةً
مُعَارِضَاتٍ مثَانِى اللُّجْمِ بالجُدُل
إن العلا حدَّثتْنى - وهْى صادقةً
فيما تحدِّث - أن العزَّ فى النُّقَلِ
لو أن فى شرف المأوى بلوغَ مُنًى
لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل
أهبْتُ بالحظِّ لو ناديتُ مستمِعاً
والحظُّ عنِّىَ بالجُهَّالِ فى شُغُلِ
لعله إن بَدَا فَضْلِى ونقصُهُمُ
لعينِهِ ، نام عنهُمْ أو تنبَّه لِي
أعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها
ما أضيقَ العيشَ ، لولا فسحةُ الأمَلِ
لم أرتضِ العيش والأيامُ مقبلةٌ
فكيف أرضى ، وقد ولَّت على عَجَلِ
غالىَ بنَفْسِىَ عِرْفَانى بقيمتها
فصنتُها عن رخيصِ القدْر مُبْتَذَل
وعادةُ النَّصْلِ أن يُزْهَى بجَوْهَرِهِ
وليس يَعْملُ إلا فى يَدَىْ بَطَلِ

---

(١) الغِمار : جمع غمْر ، وهو الماء الكثير . أو جمع غمرة ، وهى الشدة .

ماكنت أُوثِرُ أن يمتدَّ بى زمنى
حتى أرى دولةَ الأوغادِ والسِّفَل
تقدمتنى أنـــاسٌ كان شـــوطُهُـــمُ[1]
وراءَ خَطْوِىَ إذْ أمشِى على مَهَل
هذا جزاءُ امرِىءٍ أقرانُـه دَرَجُـوا
من قبْلِهِ ، فتمنَّى فُسْحةَ الأجَل
وإن علانيَ مَن دونى فلا عجبٌ
لى أُسْوَةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَلِ
فاصبرْ لها غيرَ مُحْتَالٍ ولا ضَجِـرٍ[2]
فى حادثِ الدهرِ مايُغْنى عن الحِيَلِ
أعْدَى عدُوِّك أدنى من وثِقْتَ به
فحاذر الناسَ ، واصحبْهم على دَخَلِ[3]
وإنما رجـــلُ الدنيـــا وواحدُهـــا
من لا يعوِّل فى الدنيا على رَجُل
وحسنُ ظنِّكَ بالأيـــام مَعْجَـــزَة
فَظُنَّ شـــرًّا ، وكنْ منها على وَجَلِ
غاضَ الوفاءُ ، وفاض الغَدْرُ ، وانفرجتْ
مسافةُ الخُلْف بين القـولِ والعمل
وشَـانَ صِدْقَكَ عند الناس كِذْبُهُمُ
وهـل يُطابَـقُ مُعْـوَجٌّ بمُعْتَـدِل

---

(١) **الشوط** : الجرى إلى غاية . والمقصود منتهى الجد .
(٢) **الضجر** : هو الذى يضيق بالأمور الصعبة .
(٣) **الدخل** : أصلها : المكر والخديعة والغدر . وقد يقصد بها هنا الحرص والحذر .

إن كان ينْجَعُ شيء فى ثباتِهِمُ
على العهود فسبقُ السيفِ لِلْعَذَل

ياوارداً سُـــؤْرَ[1] عيش كلـــهُ كَدَرٌ
أنفقْتَ عُـمْرَك فى أيَّـامِك الأُوَل

فيم اعتراضُك لُجَّ البحرِ تركَبُه
وأنت يكفيكَ منه مَصَّةُ الـــوَشَل[2]

مُلْكُ القَنَاعِة لا يُخْشَى عليه ولا
تحتاجُ فيه إلى الأنصارِ والخَوَل

ترجو البقاءَ بدارٍ لاثباتَ لها
فهل سمعتَ بظلٍّ غيرِ مُنْتَقِل ؟

ويا خبيراً على الأسرارِ مُطَّلِعاً
أنصتْ ففى الصَّمْتِ مَنْجاةٌ من الزلل

قد رشَّحُوكَ لأمرٍ إن فَطِنْتَ لهُ
فارْبأْ بنفسِكَ أن تُرْعَى مع الهَمَلِ

---

(١) **سؤر عيش** : السؤر : البقية والفضلة

(٢) **الوشل** : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة .

٣ قد دعوناك وإن لم تسمع

لابن زهر (٥٠٧ - ٥٩٥ هـ)

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زُهْر ، الأندلسى الأشبيلى . ولد بأشبيلية ، ونشأ بها ، وحفظ القرآن ، وسمع الحديث . أقبل على الأدب واللغة والعربية فبرع فى ذلك كله ، وعانى الشعر فبلغ الإجادة فيه . كان يحفظ شعر ذى الرُّمة ، وانفرد بالإجادة فى نظم الموشحات التى فاق بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وأخذ صناعة الطب عن أبيه أبى مروان عبد الملك ، وباشر أعمالها ، ففاق أهل زمانه ، وخدم بها دولة الملثمين فى آخر عهدهم ، ثم خدم دولة الموحدين بنى عبد المؤمن يقول :ـــ

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت فى غرته
وبشرب الراح[1] من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق[2] إليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع
مالعينى عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ماشئت فاسمع خبرى

---

(١) الراح : الخمر

(٢) الزق : وعاء الخمر

عشِيَت عيناى [1] من طول البكا وبكى بعضى على بعض معى
غصن بان مال من حيث استوى
بات من يهواه من فرط الجوى [2]
خفق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر بِالْبَيْنِ بكى ويحه يبكى لما لم يقع
ليس لى صبر ولا لى جلد
يا لقومى عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقه أن يشتكى كمد اليأس ، وذل الطمع
كبدى حرى ، ودمعى يكف
يعرف الذنب ولا يعترف
أيها المُعْرِضُ عما أصف
قد نما حبك عندى وزكا لاتقل فى الحب إنى مُدَّع

---

(١) عشيت عيناى : ذهب بصرها ، وأصل العشا : عدم البصر ليلا .
(٢) الجوى : الحرقة وشدة الحزن .